وإذا مرضت فهو يشفين[1]

أيْ بُنَيّ !

أسمع عطسك وأنت بعيد قبل أن تصل إليّ، وعندما وصلت رأيت عينيك وقد بدا فيهما الاجهاد، ووجنتيك وقد أثّر فيهما السّهر، وأنفك يرشح، ونَفَسك يفحّ، وأنت منهك، ما أن وصلت حتى رميت بجسمك على الكرسي الوثير، ورميت ساعديك بارتخاء إلى جنبي الكرسي، وتنهّدت، وشعرت براحة وأنت تقول: آه. وكأنّ في هذه «الآه» حفنة من «الأوكسجين» أدخلتها إلى صدرك لتساعد الرئتين على عمق التّنفس الذي أصبح سطحيا لما تعانيه من «زكام» أو «نشلة» كما تسمّى أحيانا، أو «علّة الرّخوم» كما يطلق عليها أحيانا أخرى.

والزّكام، يا بُنَيّ، يمكن بدون «تجوّز» أو تجاوز

(١) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية ٨٠.

أن نسمّيه مرضا، ودع عنك الحياء الذي يسيطر على بعض النّاس، مما يبرّر تسميته «بعلّة الرّخوم» فهو جثّام على الصّدور، ملهب للأنوف، رافع لدرجة الحرارة، مضخّم لشعب الرّئة والصّدر، منهك للجهد، «هادّ للحيل» مقلّص للقدرة على العمل، يتدخّل في إجادته، ويعترض سبيل إتقانه.

كان الجيل الماضي يخجل أن يستريح إذا استضاف الزّكام، ويقاوم في صمت، ومهما عانى فانّه يتظاهر بأنّ الأمر «بسيط» وعارض، وأنه مدبر حتى إذا كان مقبلا. ولكنّ عينيه وأنفه وحركته، وصوت تنفسّه تفضح ما يخفيه. ثم يبدأ نشر هذه العلّة بين النّاس، يساعد على هذا قلّة الوعي، وضيق الأماكن، وضعف المناعة.

والزّكام صورة مخفّفة مما أصبح معروفا «بالأنفلونزا» أو كما يقال أِنّه في الأصل «أنف العنزة» مستقىً من أنف العنز، وهو دائم البلل. والانفلونزا أصبح لها أهمية بعد أن عاثت في النّاس

منـذ سنوات، وقتلت من قتلت باسم «الآسيوية» وزارت بلدانا عديدة وتركت خلفها مآسي وآلاما. ومن لطف الله أنّها وهي تدرج تضعف حتى لا تعد تؤثر على طفل.

وقــد عاثت في نجـد في عام ١٣٣٧هـ ومـات بالاصـابـة بها خلق كثـير، وسمّيت سنتهـا بسنـة «الصخنـة»، أو سنة «الرّحمة»، وقيل إنّ الزيجات بعدها قلّت، لكثرة من مات من الشبّان والشابّات، ويقـال أيضـا إن التّلاحـم بين العـوائل في المدن والعوائل في القرى، والتداخل بين الأسر، المشاهد حاليا، يعود بعضه إلى هذه الفترة، فقد وسّع أهل المدن البحث عن زوجة في القرى بعد أن شحّ الأمر في المدن، وكذلك فعل أهل القرى عندما واجهوا الصعوبة نفسها.

ومـظهـرها، حسب رواية من عاصروها، أنها تبدأ بحرارة، تؤدّي إلى آلام في المفاصل والظّهر، وانحطاط في الجهد، فإذا مرّ ثلاثة أيام على المصاب

نجـا باذن الله. ولعـل ارتفاع الحرارة المتناهي هو الذي كان يقضي على النّاس. وقليل من النّاس نجا منها، وأقلّ من القليل من لم يصب بها.

تحدّث أحد من عاصروها، فقال إننا كنّا نصلّي في كلّ فرض على ميت واحد، ثم ازداد العدد حتى لم نعد نصلّي عليهم في المساجد، بل نصفّهم صفّا في المقـبرة، ونصلّي عليهم هناك وندفنهم، وقد وصل الأمر إلى الحدّ الذي يكون المصلّى عليهم أكثر من المصلّين. وحفـرت قبـور جماعيـة، ليسهـل على الـدّافنـين الـدفن، وليتـوفّر الوقت، وإلّا فالجهد مبـذول، إلّا أنـه لا يكفي، لقلّة عدد الأصحاء، وتمكّنهم من أداء الـواجب، وكـان يدخـل وقت الصّلاة التالية وهم لم ينتهوا من دفن الموتى المصلّى عليهم بعد الفرض السابق.

وقد وصل الأمر ببعض النّاس أن ذهب وحده ليصلّي على «فرط» له، ويدفنه وحده، ولم يكن معه أحد وهو أمير المدينة. وخليت بيوت من النّساء،

وخليت بيوت من الرجال، وكانت العلامة للبيت الخالي من الرجال إذا مات فيه أحد أن تضع ساكناته «غـدفة» «خماراً» أو غطاء وجهها معلّقا على حلقة البـاب، فيـدخـل المـارّون ويجـدون الميت خلف الباب، فيحملونه للصّلاة عليه ودفنه.

وبقي في المدن والقرى عدد قليل ممن نجوا، أو حماهم الله من المرض، يعملون ليل نهار، احتسابا، ولـو كانـوا في زماننا هذا لأعطوا «نياشين» مميّزة، ولكن سلامتهم، ومـا يرجونه من ثواب عند الله، كان خيرا وأبقى.

لا يسع المرء ـ يا بُنَيّ ـ أمام ما يسمع عن هذا المرض وأمثاله ويرى كيف بتوفيق الله، ثم بوجود العلاج الحديث، أصبح هذا الوباء مقلّم الأظافر، مقلع الأنياب، مثلّم القوى، لا يسعه إلّا أن يحمد الله من قلبه على هذه النّعمة. فالحرارة المرتفعة لها ما ينـزلهـا، ومـا يمنـع ارتفاعها، وآلام الظهر لها ما يزيلها، والوعي في الوقاية، وبناء المناعة، أصبح من المسلّمات عند النّاس.

هذا الـوبـاء ـ يا بُنَيّ ـ لم يكن الـوبـاء الوحيد المخيف في المـاضـي، بل أشـدّ منه إرعابا، وأكثر حصـدا وبـاء «الكوليرا»، وهو ما يسمى في ذلك الـزّمن باسم «الشّوطة» وكان ضحاياها بالآلاف، خاصـة تلك التي انفجـر مرجلها في وقت الحجّ، حيث الازدحـام في المشـاعـر، وتـدنّي المنـاعة من الاجهاد والشّيخوخة بين الحجّاج. وقد عانى أهل مكّة والمدينة من انفجارات الأوبئة كثيرا، فلا تمرّ سنة في الماضي دون أن ترجف قلوبهم. ولكنّ الله كان يتـداركهم بلطفـه، فجعـل عنـدهم منـاعـة اكتسبوها مع الوقت، جعلها الله وجاء ووقاية أمام ما يرد مع الحجّـاج من أدواء، خزنتها أجسام أنهكها الفقر، وهصرت أعضاءها الشّيخوخة، وجاءت من بلادهـا وفي مقدّمة آمالها أن تلقى الله في الأراضي المقدّسة. وأن تدفن أجسادها في أراضيها الطّاهرة، وكنتَ ترى في الماضي أكفانا غطّست بماء زمزم، وأشبعت منـه، ونشرت في باحـة المسجـد الحـرام وسـاحـاته، يعود بها الحجّاج معهم إن لم يكن قد

obeikandi.com

كتب لهم أن يموتوا في مكّة المكرمة أو المدينة المنورة.

و «الشّوطة» ـ يا بُنَيّ ـ على اسمها، «تفوع» على النّاس وتشتعل نارها، ويشتدّ أوارها فلا تبقي ولا تذر، إلا من كتب الله له النّجاة، وكان حصدها سريعا، وجزلا، ومخلبها حادا ومستأصلا، وذراعها طويلا ومستقيما. ولا يبقى من الحجّاج إلا من كتب الله له أن يعود إلى أهله سالما، غانما حياته وأداء فرضه. وكانت مثل كل وباء فتّاك يدفن ضحاياها في قبور جماعيّة، وكانوا في مراحل، من شدّة المرض لا يغسلون، لأنّ غسلهم كان فوق طاقة النّاس، ولعلّهم كانوا يعتبرونهم مثل الشّهداء.

رحم الله من لقي منهم وجه ربه، فقد جاؤا استجابة لندائه، صافية نيّاتهم، متجرّدين من كل شيء إلا ما يلزمهم لحجّهم.

والحمد لله مرة أخرى أن تغيّر وجه الأمر الكالح، فلا الوباء إذا جاء، عنيف، ولا الوعي

معدوم، ولا الدّواء قاصر، لقد ضعف ميكروبه من كثرة ما توطّن في بعض البلدان التي ينشط منها، فإذا جاء فضحاياه من الضّعاف الأجسام، قليلي التغذية، فاقدي الوعي الصحي. وإذا كان يأتي بجنوده فإنّه يلاقي جيوشا أكثر عددا، وأوفى عُددا، وأمضى سلاحا، وأسرع للمواجهة، وأبطأ في الانسحاب. فالدّواء الذي يُقاوَم به من أحدث ما وصل إليه العلم المتعمق، والمحاليل تتلقّى المريض بالكميات المطلوبة، والعناية والرّعاية الحدبة تحفّ بالمريض. ولسان التّوعية عال، ومتغلغل في المجتمع، يضع الألغام في طريق الوباء، ينسفه قبل أن يتوغّل في الدّيار، ويوقفه قبل أن يتعمّق، متابعا، ما قد يكون منه قد تسلّل.

اسمع - يا بُنَيّ - وصفا لمعركة بين الوباء وبين مقاوميه في إحدى السّنوات القريبة. لقد تسلّل مع فئة من الحجاج بخِفية، وتستّرت هذه الفئة على المرضى، ظنّا منها أنه لن ينتشر، ولكنّه لم يكن مع ظنّها، وقد أمنته فخانها، إذ سرعان ما أفلتت منه

منطلقات لم تغب عن رقابة هذا البلد، الواعي، السّاهر على راحة الحجّاج، المستعدّ لهم منذ أشهر قبل الحجّ، بكل ما يستعدّ به المحتاط المجّرب. ولم تبخل الدّولة على الجهات الصّحيّة، في سنة من السّنوات، بالاستعداد المريح للذّهن، المتعب للأبدان، فجيوش من العاملين الصّحيّين: أطّباء وفنيين، وأجهزة ومعدّات، وأدوية ومحاليل، تهيّأ حذرا واستعداداً، بما يماثل ما يصرف سنويّا على منطقة متكاملة أو تزيد.

ظهرت حالة في مكّة هنا، وحالة هناك، وتلفّتت الرؤوس المتنبّهة، رؤوس صقور منّ الله عليها بقوّة البصر، وسلامة البصيرة، وبدأت عيادات الاسهال تدقّق، وأخذت الأجهزة تفتّش، ولم يبق على الصّعود إلى منى في يوم التّروية إلا أربعة أيام، والميكروب قد زرع مخبريّا، والمناطق داخل مكّة قد وزّعت لتراقب مراقبة دقيقة. وسرعان ما اتّضح الأمر، أنّ وباء المرض موجود وأنّ هناك من الضّحايا ما يقرب من الخمسين، وهم في فئة

بعينها، وأفلتت حالات إلى غيرهم. وكعادة المملكة في صراحتها أعلن الأمر بكلّ وضوح، وبدأ التّحرّك سريعا لتطويق الوباء، بعد أن عرف مكانه، واكتشف مصدره، وخطّ سيره.

كانت الخطوات متواكبة، والجهود متساندة، كان من بين أوائل الخطوات توعية النّاس للوقاية منه، واتخاذ الوسائل لحصره، وبذل ما في الوسع لمعالجة المصابين. كان من نعم الله على النّاس أنّ الوباء كان مكروبه ضعيف الفتك. إذا وجد مقاومة مستعدّة وكفاءة. ومن نعم الله أنّ المحاليل والأدوية كانت كافية ومعدّة في مواقع الحاجة، فلم تكن بعيدة مما قد يفقد القائمين قدرتهم على المبادرة.

كان الخوف من اعلان تفشّي المرض أن يرتعب النّاس ويرتبكوا، وقد يترك بعضهم الحجّ، ولكنّ الصراحة المعتادة غلبت، وكانت النّتيجة حسنة مثل نيّة المسؤولين. لم يرتبك النّاس ولم يرتعبوا، ولم يصابوا بالذّعر، واستمرّوا في السّير في خطوات أداء

الحج، كأنّ شيئا لم يكن، يتابعون أنباء المرض أولاً بأوّل. ويطبّقون التّعليمات بدقّة. وخصّص لفئة الحجّاج القادمين الذين ظهرت بينهم الاصابة مكان في منى، ومكان في عرفات، بعد أن أعطوا من الأدوية ما يطهّرهم مما قد يكون ألمّ بهم منه، وهُيّئت المستشفيات، وسورع بنقل من يصاب، وبدأت الأعداد تزداد في أول يوم من أيام منى، والمكافحة مستمرّة ونشطة ويقظة. وجنّد القطاع الصحي بأكمله، وحفظت الطّرقات الخارجه من مكّة إلى غيرها، ولا يخرج إلا من اطمُئنّ إلى نظافة جسمه من المرض بما يعطاه من الأدوية المطّهّرة. ورُكّز في هذا الأمر على الحجّاج الذاهبين إلى المدينة، وكان العمل متقنا فلم ينتقل من المرض شيء إلى المدينة المنوّرة مع الحجّاج الزائرين .

وسرعان ما بدأ المرض ينزل سلّم طلوعه، وينحدر من مرتقاه، ويتضاءل بعد تطاوله، حتى قُضي عليه قضاء مبرما في أقلّ من شهر. ولم يزد المصابون عن الألف والموتى في حدود أربعمئة،

وأغلبهم من كبار السّنّ، أو ممن أصيبوا قبل العلم بوجود المرض، أو أناس توالت عليهم أمراض أخرى.

والاصابة بهذا المرض الشّوطة (الكوليرا) ـ يا بُنَيّ ـ يستحقّ أن يسجّل منها قطاع هنا، يريك جانبا منها، ويكشف عن طبيعتها. يبدأ المرض بقيء وإسهال، والاسهال شكله عجيب، كأنّه دقيق شعير في ماء، يجفّ بسببه الجسم من السوائل، ويحرمه من القوّة، ثم يدخل المرء في غيبوبة. فإذا وصل إلى المستشفى رأيت في الغالب جلدا على عظم. يسرع المسعفون بالبحث عن الوريد، وغالبا ما يختارونه في موطئ القدم، فتركّب المحاليل المرطّبة والمغذّية والمداوية، ثم يبدأ مفعوله بعد لحظات. وتنظر إلى وجه المصاب فترى العينين خافقتين، ولا يرى فيهما إلا تجويف بداخله كرة ثابتة، والجسم كأنّه «شنّه» وأظنّك تتذكر ـ يا بُنَيّ ـ معنى الشنّه، وهي القربة القديمة. ثم باذن الواهب القادر تبدأ العين تتحرّك تحت الجفن الذي

obeikandl.com

يغـطيها، فترتسم البسمات على وجوه المراقبين من المعالجين، ويعرفون أنّ المريض قد نجا، ثم يبدأ الجسد «يترطّب» و «يبشّ» فيه الماء والانتعاش. ثم تتركـز النّـظرات على العـين، فتبدأ الحدقة داخل مستكنّهـا «تجول» يمينا ويسارا، ثم بعد فترة يبدأ الجفن ينفرج، سامحا للعين أن تستقبل بشير الحياة: النّـور، ويرى النّاس شيئا من بياض الحدقة، ثم تتسـع الفـرجـه قليـلا قليـلا. وحتى عندما يَفتَح المريض عينيه، تشعر وأنت تراقبه أنّه لا يدري ماذا يجري، ولا أين هو، ولا ماذا جرى. ولا يتم معرفة هذا إلا بعد فترة.

ثم تدخل معالجته مرحلة ثانية، وينتقل من حوله إلى مريض آخـر، ويبـدأ العـلاج، والانتـظار والتّحديق والتّوجس، ومسك الأنفاس، ثم الفرحة والاطمئنـان: دولاب عمل لا يفتر، يقبل واحد، ويـدبر آخر، يأتي مريض ويذهب مريض، حتى أذن الله لهذا الـوافد الثّقيل بالرّحيل مشيّعا بالحمد لله. والشّكر له على أن قدّر فلطف، وابتلى فرحم،

وسهّل أسباب القضاء على هذا الوافد بجدارة وبراعة. في وقت قصير، وفي مكان صعب.

لعلك - يا بُنَيّ - قد ضجرت من الاستماع للحديث عن المرض، ولكن لابد من الاستماع للحديث عن المرض، لتتبيّن نعمة الصحّة ومقدارها، فهل يُعرف الحار إلا بالبارد، والمضيء إلا بالمظلم، والطيّب إلّا بالرّديء، والمستقيم إلا بالأعوج، المتضادّات يبيّن بعضها بعضا. ولو قست على ما قلت عن هذه المتضادّات لكتبت صفحات. أمر مريح وضدّه مزعج، وأمر مقبول وضدّه مرفوض، أمر يفرح وضدّه يحزن، أمر يشدّ العزم، وأمر يثبّط العزم[1]، أمر يحسن أن يقال، وأمر يجب ألا يقال: أرأيت - يا بُنَيّ - الذي دخل على مريض ليعوده، فأخذ يعدّد الأشخاص الذين ماتوا بمثل مرضه، واسترسل، وحاول أحد الحاضرين أن ينبّهه، ولعلّه بعقله القاصر، وتفكيره السّقيم، لم

(١) هناك كتاب المحاسن والمساوى، للبيهقي، واسمه يدل عليه، فيه من الأضداد مفردات وجمل، أقوال وأفعال ما سيفيدك ان رجعت إليه.

يتنبّه إلاّ إلى جزء من الاشارة، فكان استدراكه ضغثا على إبّاله، لانّه قال للمريض: لا تخف فليسوا كلهم تألّموا عند الموت، ما تألّم إلا فلان، وهذا ربما كان في صالحه، لأنّ الله أراد أن يطهّر ذنوبه في الدّنْيا».

ألم نقل يوما ـ يا بُنَيّ ـ إنّ الصّحّة تاج على رؤوس الأصّحاء لا يعرفها إلا المرضى، ما أصدق هذا القول، يا بُنَيّ، وما أكثر ما يرد على أذهان المرضى. لعله يرد بعدد مرّات المرض عند كلّ النّاس.

هي كلمة سرعان ما تبتذل عند كلّ جيل جديد، يطرأ على هذا العالم، فالمرض، يا بُنَيّ، يتكرّر، وعيادة المريض واجبة، والعزاء له لازم، ولا كلمة أوفى، ولا أصدق، ولا أسرع نجدة للزّائر، في زيارته للمريض، من هذه الكلمة الصّادقة في معناها، المختصرة في مبناها، المنتقاه في كلماتها، الموفّقة في تركيبها. يقولها قائلها، في أغلب الأحيان، ليس فقط مجاملة، ولكن إقرارا بما تحويه

من صدق، وما تمثّله من واقع، فهو مثل الذي «يعلوج» حلوى في فمه، مع كلّ تحويل لها من جانب من فمه إلى جانب يجد حلاوة الطّعم.

والمريض يشعر بمعناها عند مرض يلمّ به عابرا، أو مرض مقعد، أو مضنٍ. و «يتلمّظ» الصّدق فيما يقول، ويوافقه الموجودون عنده، الزّائرون له، أو المعتنون به، وفي ذهنهم، في تلك اللّحظة صورة أبهت من الصّورة التي يراها بها، يتصوّرونها من حالة كانوا بها ومرّت، ولم يبق لهم من عمق الشّعور بها إلا شعور زائر لمقبرة، جاء يشارك في دفن ميت، يشعر بالموت وفداحته عليه، وعلى من معه، ولكنّه بمجرد أن يخرج من سور المقبرة يبدأ بالبيع والشّراء، ولا يخطر الموت على ذهنه، وكأنه لم يمرّ به شيء عنه منذ قليل. هذه سنّة الله ليعمر الكون بمن فيه.

فإذا ما تقدّمت السنّ بالمرء، وفقد العافية أو بعضها، في يومه وليلته، وانتظمت معزفة الأمراض عليه، يسمعها (هذه الجملة) كلّ لحظة، ويراها كلّ

دقيقـة، ويلمسها كلّ ساعة، ويحسّها كلّما تحرّك، تأكل معه إذا أكل، وتشرب معه إذا شرب، تستيقظ معه إذا استيقظ، وتقلق نومه إذا نام؛ فالرّأس فيه ثقـل مزمن، وصداع مديم، والجسم مرضوض، والعضلات منهكه، والرّكبة لم تعد تحمل الجسم، وفيهـا من الألم ما يجعلهـا لا تنثني، فألم ممضّ عند الصعـود، وعنـد النـزّول، وعنـد القيـام، وعند القعود، السّير بمقدار، والوقوف بمقدار، وحتّى الجلوس بمقدار.

وهـذه أسنـان تقـافـزت من الفم، كما يتقـافز المتسابقون في حوض سباحة، أو يتقافز الرّصاص من بندقيّة صيد، ففقد صاحبها لذّة المضغ، وشهيّة الأكـل، وطلّق بعض الأطعمة بصيغتها السّابقة، وأصبحت تطحن له بأسنـان طاحـونـة المـانيّـة أو أمـريكيـة أو فرنسيّـة أو يابانيّة، ولم تعد له تلك الأسنـان التي ركّـز جذورها رب الجلال والعزة، راسخة راسية، ورَصفَها مثل عقد اللؤلؤ، بتنظيم محكم، وطلاء «لَاصِف» لامع، وزوّدها بما يحميها أو يساعدها على الحماية.

وهذه عين، لم تعد بحيويتها السّابقة، فصفاؤها تعكر، وقوّتها ضعفت، وبريقها خَبَا، ورمشها تساقط، وجفنها ارتخى، وجولانها في محجرها تباطأ، وسوادها فارقه حَوَره، وبياضها عزفت عنه نقاوته، وأصبحت العين بحاجة إلى نظّارة صناعيّة، تتوكّأ عليها لتصل إلى الحرف، ولتعبر الطّريق، ولتنظر للأفق، ولتميّز النّاس والأشياء، ولتفرّق بين هذا وذاك، وتمتّع روح صاحبها بأحفاده و «أشباههم» وشياتهم.

وتلك أذن أصبحت تجذب الرّأس والجسم معها لتسمع ما يقال، بعد أن كانت تسمع خرير الماء تحت الأرض، وحديث المهج في النّفوس، وبعد أن كانت تسمع دبيب النّمل في جحورها، وتتابع النّفس في الرّئة، وخفق القلوب في الصّدور. لم تعد اليوم تسمع الصّراخ ولا الهدير، الضّوضاء عندها هدوء، والحديث صمت، والصّراخ أفواه تفتح على مصراعيها وكأنّها فيلم انقطعت حبال صوته، وتوقّفت موجات الكلام فيه. لم تعد الأذن على صلة

بالرّأس في تناسقهما في الالتفات والاستماع، هذا في جهة، وتلك في جهة، ما لم يعضّد المتكلم قوله بوكزة أو اشارة، وما لم يضع الأصمّ سمّاعة هي للبئر مثل الدّلو لا ماء إلا به، خلافا لماء العيون المتدفّق، والشلّال النّازل، والنّهر الجاري.

ويأتي دور الرئتين فقد أصبحتا لا تتحمّلان طموح الجسم، فصاحبهما يلهث من صعود «زلفتين» من زلفات الدّرج، وخطوتين من خطوات السير، وكلمتين من كلمات التّعبير، ولقمتين من وجبات الطّعام. وصاحبهما كالصّاعد للجبل، وقاطع المسافات ركضا، والمتكلّم ساعات بصوت عال. يدخل الدفعة على الدفعة من النّفس، تتصادم الدفعتان، لا تتكامل الأولى في الدّخول حتى تقابلها الأخرى بالخروج.

والسّكّري داء أصبح له شأن في هذا العصر، وصاحبه في جهاد، إن أكل فقد يخالف التّعليمات الطّبيّة، وإن لم يأكل وقع فيما خاف منه، فهو في كلا

الحـالين قلبه في وجيف، وباله في شغل، وزيارته للطّبيب منتظمة، ومفاجئة، وللمعامل متتالية. وله دور طبّي يقوم به يوميا، لا «يفخته»، ولا يهمله إلا بثمن باهظ.

والقلب الذي لم يعرفه النّاس من قبل إلا مربطا للحبّ، ومنطلقا للعشق، ومربعا للودّ، ومستودعا للعواطف، ومأمنا للدّعه. مع ما يغزوه من سحائب الحقد، وما يمرّ به من دفقات البغض، وما يعتريه من صادفـات الكـره، ومـا يسـوّده من غاشيـات الحسد. أصبح اليوم ضعيفا لا أمام العاطفة، ولا أمام التـوسّـل، ولا أمـام الاستجـداء أو التقـرّب والتــزلّف، وإنّـما أمـام تخاذل العضلة، التي هي كيانه، وانسداد الشرايين التي هي مسارب حياته، تهاجمـه الجلطة فيستكـين، ويتجـاوب معـه سائـر الجسد، ولا غرو فهو المضغة التي يصافح انتاجها كل بقعة في الجسم، حقّها منه بقدر دفعه الدّم لها، فمنه لها القوّة والنّشاط، ودوام الحياة.

يا بُنَيّ، نقلتك من المرض، وثقل الحديث فيه إلى جانب منه ليس أخفّ، ولكن لي هدف، يا بُنَيّ، أريد أن أعوّدك على تحمّل قبول ما لا يعجبك، لأنّ الحياة فيها الكثير من هذا، وإن لم تتعوّد من الآن، وغصنك غضّ، وإهابك فضفاض يقبل مثل هذا، فإنّك تنهار في المستقبل إذا جوبهت بما تكره، أما إذا كانت لك تجربة بتجرّع دفعات قليلة من الصّبر والتحمّل، فانّها تعطيك مناعة، والمناعة هنا هي المبرّرات التي تنبع من نفسك، وتقنعك بقبول ما يبتليك به الله عن طريق النّاس والزّمن، فصوت في داخلك يقول تحمّل، فهذا ليس أسوأ مما مرّ بك في المناسبة الفلانيّة، وقد أصبحت ذكرى، لم تترك خدوشا تُرى، أو أنّ زمن هذا الثّقل قصير، وتحملّه يعفيك من مستلزمات عدم الصّبر فيما لو لم تصبر. هذا وأمثاله ممّا يستقرّ في نفسك، وتعتاد عليه، ويكون صخرة تتكّسر عليها هجمات الزّمن مما لا ترغبه منه.

فإذا كنت اقتنعت بما قلت فالحمد لله أن فتح ذهنك لما فيه فائدة لك تستقرّ فيه ولا تبرحه، وإذا لم تكن اقتنعت، ولكن وجدت أنه لابدّ لك من التّسليم، فهذا أيضاً، يا بُنَيّ، مظهر من مظاهر الفائدة لما سوف يقابلك في مستقبلك مما لا بدّ لك من التسليم به، حتى لو لم تقتنع، والفائدة في التّسليم أو الضّرر يتوقّف على المسلّم به والمسلّم له، وظرف التّسليم.

نعود إلى ما كنّا فيه من تقصّي بعض مساقط الأمراض في الجسم، ولعلّ الكبد صاحبة حقّ في أن نعطيها ما تستحقّه، فالكبد، يا بُنَيّ، وما أدراك ما الكبد، أخذت حقّها من الوصف في الماضي، فقيل عنها إنّها حرّى، وما أكثر ما قالت النّائحات: «واكبدى»، وما أكثر ما كانت الكبد مصبّ الغضب في الحروب، ومرمى السّهام لنبال الحقد والبغضاء، فيها، أو وسائل الدفاع وتلقّي التّشفّي، فقد قُضمت أكباد بالأسنان، ولِيكت بالأفواه، ولم تكن

حينئذ أسناناً تقضم كبدا ، أو أفواهاً تلوكها ، ولكنّها كبد تقضم كبدا ، احداهما جنودها الأسنان ، والأخرى عسكرها لهب التّشفّي .

أمّا اليوم فالكبد آفتها التّشمّع ، ومصيبتها التّليّف ، أمّا عن طريق الآثم ، أو عن طريق تعاطي الأدوية ، أو نتيجة أمراض في الغالب في الصّغر ، أو عن طريق عامل سلمي ، مثل شرب القهوة . هذا في الماضي ، أمّا اليوم فقد أصبحت الكبد السّقيمة تقام ويحلّ محلّها جديدة ، تعطي المريض الميؤوس منه أملا جديدا في الحياة ، وتفتح له أفقا واسعا ، كاد أن يقفله اليأس برتاج أبديّ .

والمعدة ، يا بُنَيّ ، بيت الداء من قديم ، قرحتها لم يسلم منها أحد ، إما لمسا خفيفا ، وزيارة ملمّة ، أو سكنا واقامة دائمة ، تصحبها معاناة ممضّة ، تتلوها عمليّة ، تأتي على جزء من المعدة ، أو تفصل الحالب ، وتوقف المحلوب ، ويصبح غذاء الرّجل مثل غذاء الرّضيع .

obeikandi.com

والأمعاء لها قرحة، يا بُنَيّ، مثل المعدة، لها مثل آلامها، وإشقاء وتسهيد مثل إشقائها وتسهيدها، تحرم المصاب بها من لذيذ الطّعام، ومتنوّع الغذاء، وتحميه إلاّ مما يقيته في حدود صفات معيّنه. ومن نجا من قرحة المعدة فقد لا ينجو من قرحة الاثنى عشر، والحمد لله أنه ليس الثلاثة عشر، وإلا دخل الأمر عند بعض النّاس في حدود التّشاؤم.

والكُلى، وليست إلا من أكثر الأعضاء شأنا، لطف الله فأوجد لعلّتها دواء، وبقدر عظم مصيبة عطبها فقد يسّر الله علاجها، وجعل نسبة نجاحه مرتفعة. فقد تقدّم الطّب في تفتيت ما يتجمّع فيها من حصى، وطرد ما يترسب فيها من رمل. وبهذا فقد نظر الله إلى من يعاني منها نظرة لطف وعطف.

وغير هذه وتلك أعضاء توجَع، وأدواء تحِلّ، وآلام تُعانَى، وأوجاع وأوصاب، وأمراض أو أعراض أمراض. وفقد حواسّ، ونقص مناعة، وسمنة متناهية، وضعف شديد. لا يأمن المرء في

حياته من هزال بعد قوّة، وصفرة بعد تورّد، وعشًى بعد قوّة إبصار،وصمم بعد حدّة سمع، وعرج بعد استقامة مشي.

ويقول الشّيخ بعد هذا، وهو يرى هذا: «الصّحة تاج على رؤوس الأصحّاء لا يراها إلّا المرضى». ويؤمّن النّاس، والصحيح منهم يرى مؤدّى هذه الجملة باهتا، ولا «تتحبّر» الصّورة، ولا تتّضح إلا عندما يمرض، حينئذ تتسلّط عدسة مكبّرة على هذه الجملة فتبيّنها، وتجلى دقائقها، فلا يفوت المريض منها زاوية، أو منحنى.

لا بدّ، يا بُنَيّ، أنّك في منتهى السّأم مما ذكرت لك، لا لأنّه غير مفيد لك، ولكنّك في شوق إلى قصّة طريفة ترفّه بها عن نفسك، وحتّى الآن لم أجد ما يتناسب مع المقام. ولكن هل تذكر كيف بدأ حديثنا الذي جرّنا دون أن ندري إلى الأدواء والأدوية، والحديث فيها ليس مما يبهج النّفس؟ لعلّك تجد في السّؤال مدخلا للّوم أو العتب،

فتقـول: «كيف أتـذكّـر، وقـد ملأت رأسي بهذا الحـديث الذي لم يتخلّله ما يردّ الرّوح». على أي حال أنـا أذكّـرك به، وأذكّرك أنّ ما برأسك ليس منّي. لقد كنّا نتكلمّ في بدء الأمر عن الزّكام الذي أطلّت بوادره عليـك، وأخـذت تعـطس بطريقـة متوالية. وهذا هو الذي ملأ رأسك.

ولعلّك، يا بُنَيَّ، لم تأخذ حذرك من البرد، فأخذ منـك مأخذا جلب لك العطاس، وأرجو ألا تكون «علّة الرخوم» قويّة. فتوصلك للفراش. وعليك بما قاله أحد الفلاسفة عندما سئل في أمر البرد والوقاية منه قال:

«ينبغي للعـاقـل أن يتّقي الـبرد في أول الشّتاء، وفي آخره، فقيل له: وفي وسطه؟ قال: ذاك يتّقيه العاقل والأحمق»[1].

على أيّ حال لقــد قلنـا كثـيرا عن الأمـراض البدنيّة، وفي هذا فوق الكفاية. ولكن أدواء الروح

---

(١) المحاسن: ص ٢٩٤.

لم نتكلّم عنها، ولن أطيل فيها، ولكنّي أقتطف ما قاله بختيشوع الطّبيب للمأمون، قال له :

«لا تجالس الثّقلاء، فإنّا نجد في كتب الطّبّ أنّ مجالسة الثّقيل حمّى الرّوح»[٢].

إنّه مصيب حقّا فيما قال، فلا يُمرض الرّوح مثل الثّقيل، وفي الأدب العربي عن الثّقلاء شيء كثير، ولعلّ ما تحمّله الأدباء منهم هو ما جعلهم ينفّسون منه بالتّدوين :

«أتى رجل ابن المقفّع في حاجة، فلم يصل إليه وكان مستثقلا له، فكتب بيتا في رقعة، وأرسل به إليه[١] :

هل لذي حاجة إليك سبيل
وقليل تلبّثي لا كثير

فوقّع إليه :

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل
وقليل من الثّقيل كثير

(٢) المحاسن : ص ٥٨٩ .
(١) المحاسن : ص ٥٨٩ .

فأجابه الرجل :

قد بدأت الجـواب منك بفحش

أنت بالفحش والبـذاء جدير

فضحك وقضى حاجته .

وقيـل لأحد الحكماء الأقدمين : «ما بال الرجل يحمل الحمل الثّقيل، فلا يعيبه، ولا يحمـل مجالسـة الثّقيل؟ فقال : «لأنّ الحمل تشترك فيه الأعضاء، والثّقيل تنفرد به الروح»[٢] .

وقيـل أنّ أبا هريرة إذا رأى ثقيلا قال : «اللّهم اغفر له، وأرحنا منه»[٣] .

وقيـل إنّ ثقيـلا قال لأعمى : «إنّ الله لم يأخذ من عبد كريمتيه إلا عوّضه عنهما شيئا، فما الذي عوّضك؟» .

قال : «أن لا أرى أمثالك»[١] .

(٢) محاضرات الأدباء : ص ٢٢٧ ، والزمرّد الفائق : ص ٤٤ .

(٣) محاضرات الأدباء : ص ٢٥٧ .

(١) قارن هذا بما ورد في الزمرّد الفائق بين أبي حنيفة والأعمش ص ١٦ .

والحـــديث عن الثّقـلاء، يا بُنَيّ، يطول، لأنّ عددهم عبر الأجيال كثير، حتى لو لم يكن عددهم كثيرا فالثّقل حمل، وليس ثقلا على الأجسام، لأنّها تتحمّـل، وتسـتريح، وينسى صاحبها ما مرّ بها، ولكنّ ثقلهم على النّفس والـرّوح، ومـا يخدش النّفس يترك فيهـا ندوبا، وثقل الدّم وخفّته طبيعة يضعها الله في الانسان، تجد هذا منذ كان طفلا وهو خفيف ظلّ، وتجـد آخـر خلافـه، ظلّه أثقـل من الجبال الرّواسي، وألسنا، يا بُنَيّ، الآن في الحديث عن الأدواء، وثقل الطّينة يبدو أنّه داء ليس له دواء محدّد، ويحتـاج المـرء أن يتصرّف تجاهـه حسب الظّروف واللّحظة، وحسب الثّقيل ومدى ثقله.

استمع، يا بُنَيّ، إلى هذه القصّة، واحكم أنت وجيلك فيها، أليست تجلب مرض القلب، وتسبب السّكتة:

قال أبو العبّاس المبرد: ضاف رجل قوما فكرهوه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن

نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: إلق بيننا شرّا، حتّى نتحاكم إليه. ففعلا. فقالت للضّيف: بالذي يبارك لك في غدوّك غدا، أيّنا أظلم؟ فقال الضّيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرا، ما أعلم[1].

لهذا، يا بُنَيّ، قيل إن رؤية الثّقيل هي العمى الأصغر، وقيل للأعمش: لم عمشت عينك؟ فقال: من النّظر إلى الثّقلاء[2].

هل تصدّق، يا بُنَيّ، أنّ بعض الثقلاء أحيانا يستجيبون لطلب خفّة الدّم، أو على الأصح خفّة المقام، ولعلّ هذا النوع من الثّقلاء يكون غافلا عن ثقله، فيتنبّه إذا نبّه، فبعضهم لا بدّ أنه لا يخلو من نقطة دم حرّ في جسمه تفيده، لأنّ الحرّ تكفيه الاشارة، قبل أن تتطوّر إلى صفعة اليد على صفحة الخد:

---

(١) الأذكياء: ص ١٣١.

(٢) الزمرد الفائق: ص ١٦.

طوّل ثقيل المقام عند رجل، فلما أمسى اللّيل، وأظلم البيت، لم يأته بسراج، فقال الثّقيل: أين السّراج؟ فقال صاحب البيت: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾. فقام. وخرج[1].

ماذا، يا بُنَيّ، لو اختلط ثقل الدّم مع السّياسة؟ ما هي الحصيلة التي تخرج منهما؟ اسمع هذه القصّة، وستعرف الجواب:

أكبّ رجل من بني مرّة على مالك بن أسماء، يحدّثه في يوم صيف، ويغمّه، ويثقل عليه، (أضف إلى هذه الخلطة رائحة العرق، وسوء النَّفَس، وسماجة المفاخرة، لأنّ الراوي قال: «أكبّ عليه»).

ثم قال له: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكنّي أعرف من قتلتم

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢، الزمرد الفائق: ص ١٠٣.

obeikandl.com

منّا في الإسلام. قال: ومن هم؟ قال: أنا، قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك[1].

أيّا كان تصوّرك، يا بُنَيّ، للأمر فالخلطة التي ذكرتها لا يمكن تحمّلها أو على الأصحّ بلعها مادامت خلطة!

وكما قلنا قبل ذلك، إنّ ثقل الظّلّ داء، ترى هل يجوز لنا أن نقول: إنّ خفة الدّم دواء، إذا صحّ هذا فلن يرضيك بعد أن أمطرناك بسيل من أخبار الثّقلاء، ووابل من ثقلهم، وداء من مخزونهم، إلا أن نداوي ذهنك وسمعك بأخبار خفيفي الظلّ، وهذا باب واسع، وطريق طويل، يمرّ سالكه بأشجار ذات أفنان، لا يُمَلّ السّير فيه ولا السّرى، ولا النّوم في أفيائها إذا هجم الكرا. وعليّ أن أختار من بين ما علق بذهني من أخبارهم، وملحهم، ما يناسب المقام.

(١) عين الأدب: ص ١٩٢.

وخفّة الرّوح تأتي أحيانا من الاقدام على «المقالب» اللّطيفة (اللّطيفة في الأصل يقصد بها القليلة أو الصّغيرة أو الخفيفة)، أو من الرّدود الحاذقة، والتعليقات الباسمة (أقصد التي تجلب الابتسامة، بل تقتسرها أحيانا .

هناك شريح القاضي، وهو خفيف الظّلّ، لمّاح ذكي، له قصص مدوّنة في هذا، وأصبح مثل جحا، أو أحد الطفيليين، تُعلّق عليه قصص لم تحدث منه، ولكنّها تجانس ما اشتهر به، وما عرف عنه. ويبدو أنّ النّاس في كل زمان يفرحون بالمشجب من البشر، يكتشفونه ليعلّقوا عليه شرائح أفكارهم لتُقبل، لأنّهم بغير ذلك يعرفون أنها سوف ترفض، أو توضع تحت المحكّ وتكون عرضة للرّفض والتّجريح.

والنّاس في ترويج القصّة لهم شعور نفسي، يطلق أحدهم الأشاعة، أو يؤلف القصّة، فإذا لم يكن واثقا من نفسه، وقبول النّاس لما يقول علّقها

على مجهـول أو معروف، والمجهول أحيانا أفضل له، لأنّه يأمن من متابعة من نسبت إليه، والنّاس يخدمونه في محاولة إلصاقها بمن تتناسب مع طبيعته، وقـد يكتفـون بابقـاء ذلـك في ذهنهم، ثم لا يفتأ شخص أن يُلبسها آخر بعد أن أبعدت عن مخترعها الأصلي، فيخدم بذلك قائلها أو قاصّها المخترع. ومثـل القصص مثل كرة الثّلج المتدحرجة، يكبر حجمها مع تدحرجها، وقد يسمعها صاحبها بعد مدّة فينكرها بعد أن تغيرت ملامحها، إلا إذا دوّنت، فقد يبطئ زمن تغيّرها، سواء بالتّحسين أو التّشويه:

قيل إن شريحا خرج من عند زياد، وهو مريض، فأرسل إليه مسروق الأجدع رسولا يسـألـه: كيف وجدت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهَى، يقصد يأمر بالوصيّة وينهى عن النّياحة[1].

وقيل إن عديّ بن أرطأة أتى شريحا، وهو

(١) الأذكياء: ص ٦٤.

في مجلس القضاء، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إسمع منّي! قال: لهذا جلست مجلسي. قال: إني رجل من أهل الشّام. قال: الحبيب القريب. قال: وتزّوجت أمرأة من قومي. قال: بارك الله لك بالرفاء والبنين. قال: وشرطت لأهلها ألا أخرجها. قال: الشّرط أملك. قال: وأريد الخروج قال: في حفظ الله. قال: إقض بيننا. قال: قد فعلت[1].

ألا يذكرك هذا، يا بُنَيّ، بما زعَمته العرب على ألسن البهائم. قالوا: إنّ الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثّعلب، فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضّبّ، فقالت الأرنب: يا أبا الحسل، فقال: سميعا دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلا حكّمتما، قالت: فاخرج إلينا،

(١) الأذكياء: ص ٦٤.

قال: في بيتــه يُؤتـى الحـكم، قالت: إني وجـدت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثّعلب، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمتـه، قال: بحقـك أخـذت، قالت: فلطمني، قال: حرّ انتصر، قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت[1].

نعـود إلى ما كنّـا فيه من الحديث المسلّي: دواء الرّوح المكدودة.

لعلّك تذكر، يا بُنَيّ، نعيمان الصّحابي، وخّفة ظلّه، وإتقانه «للمقالب»، ولكن كيف تنسى مثل هذا الأمر! والجملة الأصوب هي أن أقول: لعلّك تشتاق إلى أخباره، ولا تحتاج إلى سؤال، فأنت لا تملّهـا. وإدخـال السّرور إلى نفسـك هدف من أهـدافنـا، خاصّـة بعـد أن سمعت عن الأدواء، واحتجت كما قلنا إلى دواء للرّوح المجهدة:

(١) مجمع الأمثال للميداني، ٢/ ٧٢. شرح المثل «في بيته يؤتي الحكم» ٣٧٤٢.

يقـال إن أبـا بكـر خرج في تجارة إلى بصرى، قبـل وفـاة الرّسول، ﷺ، بعام، ومعـه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا قد شهدا بدراً، وكان سويبط على الزّاد، وكان نعيـمان مزّاحا، كما تعرف، فقال لسويبط: أطعمني. قال: حتى يجيء أبو بكر. قال: أمـا لأغيظنّك. قال الراوي: فمرّوا بقوم، فقـال لهم نعيـمان: أتشترون منّي عبدا لي؟ قالـوا: نعم. قال: إنّه عبد له كلام، وهو قائل لكم: إنّي حرّ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدواعليّ عبدي. قالوا نشتريه منك.

فاشتروه بعشر قلائص. ثم أتوه فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلا. فقال سويبط: إنّ هذا يستهزئ بكم، إنّي حرّ، ولست بعبد. قالـوا: أخبرنا بخبرك. فانطلقوا به، فجاء أبو بكر، فأخبره نعيمان بما تمّ، فأتبع القوم، فردّ عليهم القلائص، وأخذ سويبطاً.

فلمّا قدمـوا على النّبي ﷺ، وأخـبروه، ضحك وأصحابه حولا على ما جرى[1].

وبعـد هذا كلّه، يا بُنَيّ، نشكـر أنت وأنـا الله سبحـانه وتعالى على نعمة الصّحة والعافية، وعلى ارتفـاع الأوبئـة والأمـراض، التي كانت تنـزل بالنّـاس، ولا تكـاد تختفي حتى تعـود، ولا يقـال تقلّصت حتى يقال عادت فانتشرت، ولا يُظنّ أنّها زالت حتى يتبيّن أنّها عادت، ولا يرجى أنّ نارها انـطفـأت حتى يفـاجأ النّاس بأنّها اشتعلت، ولا يعتقد أنها مدبرة حتى يعلن أنها مقبلة. إذا حلّت أقامت، وإذا أَبرزت منجلها حصدت، وإذا نزلت توغّـلت، وإذا أصـبـحـت بطشت، وإذا أمست اكتسحت. لا ترحم والدا في ولده، ولا زوجا في زوجـه، ولا أخـا في أخيـه، ترمّل الكبير، وتؤتم الصغير، وتأتي على القويّ مثلما تأتي على الضّعيف.

(١) راجع الأذكياء : ص ٢٨ فهناك ابن الجوزي يقلب الأمر ويجعل سويبطاً الضّاحك، ونعيمان المضحوك عليه .

أِحمد الله على أن جعل هناك تطعيما وتلقيحا يردّ الوباء بترسه، ويوقفه عند حدّه، وأوجد علاجا يقطع المرض بسيفه، ونظافة بيئة تقفل دون الآلام الأبواب، وتوصد المنافذ، وتَغذية تهيء للمرء سلاحا، وتشرع للعافية أبوابا، وتقيم للصّحة صروحا، وهَدى إلى اكتشاف تركيب محاليل تقضي على الذّباب، وأخرى تأتي على الصّراصير، وتهلك البعوض، وتقطع دابر القمل، وساعد على إيجاد معاجين لتنظيف الأسنان، وانعاش الفم، وتقوية اللثّة، والوقاية من السوس.

نحن اليوم، يا بُنَيّ، في نور العلم، وسطوع ضياء الحضارة، فعلم ما ينفعنا، دنياً ودِيناً، متاح مبذول، إحمد الله واشكره على هذا، واطلب منه المزيد لما تحبّ أن يزيدك منه، فإنّه جواد كريم، ما عنده لا ينفد.

روي عن رسول الله ﷺ، أنّه قال:
«تشكّروا لمن أثنى عليكم» والثناء قول، فما

بالـك، يا بُنَيّ، بمن أعـطاك فعلا وأكثر. أليس أولى بالشكر[1]؟.

واسمع، يا بُنَيّ، الرّجل العظيم شريح، وما قال في مجال الشكّر:

إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله عليها، لأربعـة وجـوه: أحمده إذ لم تكن أعظم ممّا هيه، وأحمده إذا رزقني الصّبر عليها، وأحمده إذ وفّقني لاسـترجـاع على ما أرجـو فيـه الثّواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني[2].

ولبعضهم، يا بُنَيّ، تعبيرات جميلة عن الشّكر، تدل على تفكير، وتلذّذ في نطق عباراته، وتفنّن في صياغتها، دليل الاهتمام، وانشغال الذّهن به. قال أحدهم يصف الشّكر ومفعوله:

الشّكـر تعرّض للمزيد السّائغ، والنّعم

(١) عين السّياسة: ص ١٨٧.
(٢) عين السّياسة: ص ١٩٠.

السوابغ. وقالوا في شكر شخص لآخر:

شكره شكر الأسير لمن أطلقه، والمملوك لمن أعتقه.

أو: أثنى عليه ثناء الرّوض الممحل، على الغيث المسبل.

أو: أثنى عليه ثناء لسان الزّهر على راحة المطر.

أو: أثنى عليه ثناء العطشان الوارد، على الزلال البارد.

أو: شَكَره شكر الأرض للدّيم، وزهير لهرم[1].

والإنسان لا تتم له السعادة ـ يا بُنَيّ ـ إلا بالصّحة، والصّحة لها مقومات أحدها مراعاة ما يحتاجه الجسم من غذاء، وتجنّب ما يضرّه من

(١) زهر الآداب: ٢/٥١.

أسباب ومعوّقات، وإذا اختل أحد هذين الأمرين احتاج المرء إلى ما يشبه التّرميم في البناء، وهو المداواة والمعالجة. والصّحة التامة يحتاجها المرء لدينه وعمله، وبدونها أو بدون كمالها، تنقص القدرة على تكلمة الدّين أو العمل، ونقصها نقص في حياة المرء الطّبيعية، فالدّين وهو غذاء الرّوح، والوقود الذي يسند العمل المادي يضعف أداؤه، ويضعف التّصور اللازم للتدبرّ في الكون وخالقه، لانشغال الذّهن بمعاناة المرض.

والأمراض مع الانسان في حياته منذ أن عُرف وجود الانسان، ولابد أن يسعى للتّخلص منها وما واكب وجودها، ومعرفة الأدوية والعلاج جاء صدفة أحيانا، وأحيانا جاء عن تدبّر وتفكير، وأحيانا هذا التدبّر كان نتيجة مراقبة لحيوان هداه الله بفطرته إلى علاج نفسه، ومع الزّمن تجمّع للانسان حصيلة يلجأ إليها، حسب ما يدلّه اجتهاده، عند المرض، فيحاول التّخلّص من المرض بما توافر له منها. وكتب الطّبّ القديم والحديث تتحدّث عن

كيفيّة بدء إدراك الانسان للصّحة وعلاج الإنسان نفسه، والطّبّ الأول المتقدّم، تاريخه لا يعدو الحدس والتخمين، إلى أن وصل الإنسان إلى ما دوّن في هذا عن الاغريق والهنود، وغيرهم من الأمم. وأمم الصّحارى والغابات لهم نظرتهم إلى هذا الجانب، وهي تختلف عن أصحاب المدن المتحضّرين، وإذا كان هؤلاء تخلّصوا في وقت مبكر من الخرافات والأوهام التي تحوط المرض والعلاج فأولئك من أهل الصّحارى والغابات استمروا في غَزو كثير مما يعتري أبدانهم وعقولهم إلى الخرافات والأوهام، وتركّب على هذا علاج يبدو للشّخص اليوم مضحكا أو مبكيا.

وقد يبهر ما وصل إليه الطّبّ الحديث النّاسَ اليوم، فيظنّون أنّ كل هذا الانجاز حديث، وهو ليس حديثا كلّه، وإنّما سبقَنا إليه أجيال مرت، كان لها تشخيص متقدّم، وكانت لها آلات تدهش وتذهل، وكان لهم عقاقير استنبطوها نباتيّا وكيماويا تجعل ما وصلوا إليه أساسا لما نحن عليه. وفخر

العلم الحديث هو في الآلات والوسائل الحديثة التي أدخلت نتيجة التّقدّم الكيمائي، والكهرباء والالكترون، والاتقان في الميكانيكا، وما أضافته الاتّصالات الحديثة من سرعة انتشار التّجربة، و سهولة التّعرف على تفاصيلها، واستحداث أساليب وطرق فتحت آفاقا كانت مسدودة، ساعد على فتحها الاكتشافات والاختراعات في المجالات المختلفة، وهو أمر يأتي ملائما مع التّوسّع في الرّقعة المعمورة نتيجة ازدياد السّكان واحتياجاتهم في نواحي حياتهم المختلفة.

وهناك كتاب ـ يا بُنَيّ ـ يفيد، عن الطّبّ وتاريخه، وعن الأطباء في بلاد الاغريق، وفي فارس، وفي البلدان الإسلاميّة، اسمه: «عيون الانباء في طبقات الاطبّاء» لمؤلفه: ابن أبي أصيبعه، وسوف تستفيد منه لو رجعت إليه، فهو يزيد معلوماتك عن الطّبّ القديم، وتطوّره، وعن وعي النّاس وعلماء الطّبّ في العصور المختلفة، وما فيه يعكس درجات الحضارة، وتقبّل ازدياد انتشار

الوعي الصّحيّ، في ضوء ما علبيه الدّول من عمق حضاري وثقافي.

وكتب الطّبّ القديم متوافرة بأعداد تكفي لدراسة تاريخ الطّبّ، وما مرّ به من مراحل، وما أثّر فيه من عوامل قوّة وضعفا. وفيه من الطّرافة ما يجعل قراءته ممتعة، وفيه من العجائب والغرائب ما يحير غير المتخصّص، فلا يعلم أحد منّا صحتّها من عدم ذلك، وتحتاج إلى طبيب نطاسيّ يسبر غورها، ويفتي بصحّة وقوع ما وقع، أو استحالته، هل تذكر - يا بُنَيّ - قصّة الرّجل الذي مات، وشيّعه أهله، وفي طريقه إلى المقبرة رآه أحد العارفين بالطّبّ، وقال لأهله أنّه لم يمت، وقد صحّ قوله، ولما سألوه كيف عرف أنّه لم يمت، قال إنّ الميت لا تبقى قدماه منصوبتين[1]. واحتجت أنا وأنت ونحن نتدارس هذه القصّة إلى أن نحيلها إلى الأطبّاء ليقولوا رأيهم في مدى صحّتها. وإذا قرأت في

(١) راجع أيْ بُنَيّ، ٢/٣٣٠ وعيون الانباء ٣/١٨٧، ٣/٢٣٨ وفي عيون الأنباء قصص مماثلة منها قصّة ابراهيم بن صالح إبن عم الرّشيد ٣/٥٣ .

كتاب: «عيون الانباء» فستجد كثيرا من هذه القصص، تحتاج إلى رأي طبيب متخصّص، ليرجّح الرأي فيها، نفيا أو اثباتا. وغالب ما يثير العجب ما يقال عن السكتة التي أورد المؤلف عدد حالات منها سوف اقتصر منها على حالة أو حالتين، وسنرى طرافتها، وستكشف لك أيضاً طريقتهم في العلاج، وهي تريك جانبا من الحضارة التي عاشها هؤلاء الأجداد.

أبو الحسن ثابت بن قرّة الحرّاني، من أطباء العصر العباسي المشهود لهم بالمعرفة بالطّبّ واتقانه، ألّف عدة كتب في الطّبّ. ويروي عنه ابن أبي أصيبعه في كتابه: «عيون الانباء» هذه القصّة عن السّكتة، أو الاغماء[1]:

«اجتاز يوما ماضيا إلى دار الخليفة، فسمع صياحا وعويلا، (في طريقه)، فقال: (هل) مات القصّاب الذي كان في هذا

(١) عيون الانباء ٢/١٩٥ ، انظر أيضاً ص ٢/٢١٣ ففيها سكتة قوامها الكبد.

obeikandi.com

الدّكان؟ فقالوا: أي والله ياسيدنا، البارحة فجأة. وعجبوا من ذلك، فقال ما مات، خذوا بنا إليه، فعدل النّاس معه إلى الدّار، فتقدّم إلى النّساء بالامساك عن اللّطم و الصّياح[1]، وأمرهنّ بأن يعملن (طعام) مزورة.

وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصّاب على كعبه بالعصا، وجَعَل يده في مجسّه (أي يأخذ نبضه)، وما زال ذلك يضرب كعبه، إلى أن قال: حسبك. واستدعى قدحاً، وأخرج من كمّه دواء فداحهُ في القدح بقليل ماء، وفتح فم القصّاب، وسقاه إيّاه، فأساغه (وابتلعه)، ووقعت الصّيحة والزعقة في الدّار، والشّارع، بأن الطّبيب قد أحيا الميّت، فتقدم ثابت بغلق الباب، والاستيثاق منه، وفتح

(١) اللّطم والصّياح في الإسلام محرّم على المسلمين والمسلمات، وفيه أحاديث شتّى تبيّن عقاب النائحات واللاّطمات.

القصّاب عينه، وأطعمه من المزورة، وأجلسه، وقعد عنده ساعة، وإذا بأصحاب الخليفة قد جاؤا يدعونه. فخرج معهم، والدّنيا قد انقلبت، والعامّة حوله يتعادون، إلى أن دخل دار الخلافة، ولما مثل بين يدى الخليفة، قال له: ياثابت، ما هذه المسيحيّة التي بلغتنا عنك؟

قال: يامولاي، كنت أجتاز على هذا القصّاب، وألحظه يشرّح الكبد، ويطرح عليها الملح، ويأكلها، فكنت استقذر فعله أوّلا، ثم أعلم أنّ سكتة ستلحقه، فصرت أراعيه، وإذا علمت عاقبته انصرفت، وركّبت للسّكتة دواء، استصحبته معي في كلّ يوم، فلما اجتزت اليوم، وسمعت الصّياح، قلت: مات القصاب؟ قالوا: نعم! مات فجأة البارحة. فعلمت أن السّكتة قد لحقته، فدخلت إليه، ولم أجد له نبضا، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة

نبضه، وسقيته الدواء، ففتح عينيه، وأطعمته مزورة، واللّيلة يأكل رغيفا بدرّاج، وفي غد يخرج من بيته»[1].

هذه قصة عن السّكتة - يا بُنَيّ - فيها طرافة، ولكن الكلمة الفاصلة فيها، وفي مدى صحتها، تعود للاطبّاء، يستطيعون أن يثبتوها، أو يعدوها دعوى أو خرافة، أو صدفة. ولعلك تلحظ فيها - يا بُنَيّ - بعض ما يبيّن طبيعة البشر في بعض المجتمعات، وهو سرعة اعتقاد النّاس أن الطّبيب أحيا الميّت، وهم يعلمون أنّه لا يحيي الموتى إلاّ الله سبحانه وتعالى، ورأيت سهولة تفسير الطبيب لما أدهش النّاس، وكيف أصبح الأمر مقبولا بعد أن شرح الطبيب خافيه، وأوضح غامضه، وأبان مكنونه، وجلا مبهمهُ. ثم لاحظ - إذا صحّ ما قاله ثابت - حرص الطّبيب واستعداده بالدّواء المسعف، النّافع للحالة التي كان يراقبها. ولعلّه أدرك أن أكل

(١) للبيرودي الحكيم موقف مماثل مع آكل لحم فرس مسلوق، أغمي عليه، عيون الأنباء ٣/٢٦٣.

القصّاب للكبد، وهي مخزن أدواء وهي نيّئة لم يطهّرها الغلي ولا القلي، لابد وأن تأتيه بفاجعة.

وأبو الحسن ثابت بن إبراهيم الحرّاني، أحد الأطبّاء المشهود لهم بعلم الطّبّ، له قصّة أيضاً مع الاغماء، أو السّكتة تُروى على الصّفة الآتية:

«قال: (ابن بطلان)، كان الوزير أبو طاهر بن بقيّة قد أسكت في داره الشّاطئة على الجسر، ببغداد، وقد حضر الأمير معزّ الدّولة بختيار، والاطبّاء مجمعون على أنه قد مات، فتقدّم أبو الحسن الحرّاني، وكنت (ابن بطلان) أصحبه يومئذ، فقال أيّها الأمير: إذا كان قد مات فلن يضرّه الفصاد، فهل تأذن في فصده: قال: افعل، يا أبا الحسن! ففصده، فرشح منه دم يسير، ثم لم يزل يقوى الرّشح، إلى أن صار الدّم يجري، فأفاق الوزير، فلما خلوت به سألته عن الحال، وكان ضنينا بما يقول. فقال: من عادة الوزير أن يستفرغ في كل ربيع دما

كثيرا من عروق المعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابت الطّبيعة من خناقها».

ترى - يا بُنَيّ - هل يعرف أطبّاء اليوم ما قصده بالطّبيعة، وما هو خناقها، وهل لهم رأي في الفصد، الذي بقي النّاس يجرونه إلى يومنا هذا في بعض المجتمعات، التي لم يتغلغل فيها الطّبّ الحديث. وكنت ترى الفصد في نجد والحجاز يقوم به الحلاّق أو «المحسّن»، وله معدّاته، ولو طرقه، ولابدّ أنّ له مقاديره وكميّاته.

ولطرافة أخبار هذه السّكتات، أو الغيبوبات أو الاغماءات سأزيدك منها، وإن كان يبدو عليها التّماثل في مجرى القصّة، ومجرى العلاج، مما قد يكون سببه نحل القصّة لأكثر من طبيب، أو أنّ تتلمُذ بعض الاطبّاء على بعض يجعلهم يكرّرون العلاج نفسَه كلما تكرّر المرض، وهي تُروى عن الطّبيب صاعد بن بشر ابن عبدوس[1]:

(١) عيون الأنباء ٢/٢٢٢.

«كان الوزير علي بن بلبل ببغداد، وكان له ابن أخت، فلحقته سكتة، دمويّة، وخفي حاله على جميع الاطبّاء ببغداد، وكان بينهم صاعد بن بشر حاضرا، فسكت حتى أقرّ جميع الاطبّاء بموته، ووقع اليأس من حياته، وتقدّم الوزير في تجهيزه، واجتمع الخلق في العزاء، والنّساء في اللّطم والنّياح[1]، ولم يبرح صاعد بن بشر من مجلس الوزير، فعند ذلك قال الوزير لصاعد بن بشر الطّبيب: هل لك حاجة؟ فقال له: نعم يامولانا، إن رسمتَ، وأمرتَ لي ذكرت ذلك، فقال له: تقدّم، وقل ما يلج في صدرك. فقال صاعد: هذه سكتة دمويّة، ولا مضرّة في ارسال مبضع واحد، وننظر، فإن نجح كان المراد، وإن تكن الاخرى فلا مضرّة فيه، ففرح الوزير، وتقدّم بابعاد النّساء، واحضر ما وجب من التّمريخ والنّطول[2] والبخور والنّشوق، واستعمل ما يجب».

(١) اللّطم والنواح (أو النياح) محرم وللاطمة والنائحة ان لم تتب عذاب شديد يوم القيامة.

(٢) النّطول: جعل الماء المطبوخ بالأدوية في كوز ثم صبّه على رأس العليل قليلا قليلا. القاموس المحيط.

ثم شدّ عضد المريض، وأقعده في حضن بعض الحاضرين، وأرسل المبضع، بعد التعليق الواجب من حاله، فخرج الدّم، ووقعت البشائر في الدّار، ولم يزل الدّم يخرج حتى تمّم ثلاثمئة درهم من الدم، فانفتحت العين، ولم ينطق بعد، فشدّ اليد الأخرى، ونشّقه ما وجب تنشيقه، ثم فصده ثانيا، وأخرج مثلها من الدّم وأكثر، فتكلّم، ثم أُسقي، وأطعم ما وجب، فبرئ من ذلك، وصحّ جسمه، وركب في الرّابع إلى الجامع».

هذه بعض الطّرائف التي ذكرت لك أنّي سأقصّها عليك، ولم أذكر لك شيئا ليس طريفاً خوفا من مللك وإلا فهناك الكثير عن الأمراض، وأعراضها، وتشخيصها، وأدويتها، مما قد يحير الاطبّاء ويعنتهم، فكيف لا، وهم الصّادون الغافلون رغم كثرتهم في هذا الزّمن، عن أن يدرسوا الطّبّ القديم، ويعلقوا عليه، بما يوضح ما صحّ منه وثبت، وما لم يصحّ أو ثبت بطلانه. إنّ هناك ذخائر

من كتب الطّبّ تزخر بتاريخه، وتطوّر العلاج والادوية. وتتحدّث عن رجاله، وهم رجال لهم وزنهم العقلي في المجتمع، فلا يتوقع منهم الدّجل، وهم الذين اقترن اسمهم بالحكمة، فلا تجد طبيبا إلا ويوصف بها، وله كلمات صائبة فيها، لا تقتصر على الطّبّ وإنّما تدخل في الفلسفة والمجتمع، والثّقافة وجميع جوانب الحياة، وما لم يصحّ طبّيا فقد يكون منحولا عليهم.

«اسمع ما يقوله الحارث بن كلدة، وهو من عاش في جزيرة العرب في العصر الجاهلي. وهو عصارة تجاربه في حقل الطّبّ، عندما احتضر وقال له الناس: مرنا بأمر ننتهي إليه بعدك: فقال: لا تتزّوجوا من النّساء إلا شابّة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يعالجنّ أحد منكم ما احتمل بدنه الداء[1]».

(١) عيون الأنباء ١٨/ ٢.

ويقـــول: «إدفــع بالـدواء ما وجـدت مدفعا، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئا إلا أفسد مثله».

ويتفق معه فيما قال الطبيب تياذوق فيقول للحجّاج[1]: «لا تنكح إلا شابّة، ولا تشرب الدّواء إلا من علّة، ولا تأكل الفاكهة إلّا في أوان نضجهـا، وأجِـدْ مضغ الطعام، وإذا أكلت نهارا فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلا فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة»[2].

وعنـدمـا اعترضه متفيهق بسؤال فقال: «إذا كان الامـر كما تقول فلِمَ هلك بقراط (الـطبيـب الحكيم) ولِمَ هلك جالينــوس وغيرهما ولم يبق أحد منهم؟ قال له: ـ يا بُنيّ ـ قد احتججت فاسمــع! إنّ القــوم دبّـروا أنـفـسـهـم بما يملكــون، وغلبهم مالا يملكون، يعني الموت».

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٣ .

(٢) وقد أوصى الحجّاج ابنه بالمحافظة على هذه النّصيحة عيون الانباء ٢/٣٤ .

ألم أقل لك أنّهم مع طبهم حكماء. إسمع رده أيضاً على خادم خصيّ عند الحجّاج.

«شكَى الحجّاج في رأسه صداعا، فبعث إلى تياذوق، وأحضره، فقال: إغسل رجليك بماء حار، وادهنهما، وكان الخصيّ واقفا على رأس الحجّاج، فقال: والله ما رأيت طبيبا أقلّ معرفة بالطّبّ منك. شكى الامير الصّداع في رأسه، فتصف له دواء في رجليه، فقال له: أما إنّ علامة ما قلت فيك بيّنه! قال الخصيّ: وما هي؟ قال نزعت خصيتاك فذهب شعر لحيتك! فضحك الحجّاج ومن حضر».

ولهم دراية قصوى بالطّبّ النّفسي، وهو طبّ لا تجلس إجادته إلا على كراسي العقول الرّزينة الثابتة، لأنه يحتاج إلى ملاحظة دقيقة، ووعي تامّ، وخبرة متراكمة، وليس كل ما يلاحظ فيه ماديّا، فأحيانا الأمر يعتمد على أمور معنويّة في التّعرف على

النّازلة أو على العلاج منها. اسمع هذه القصّة عن جيرائيل بن بختيشوع بن جورجوس[1]:

«تمطّت حظيّة الرّشيد، ورفعت يدها، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردّها، والأطباء يعالجونها بالتّمريخ والادهان ولا ينفع ذلك شيئا.

فأمر باحضار جبرائيل، بعد أن ذُكِر له، ولما حضر قال له الرشيد: ما اسمك؟ قال: جبرائيل. قال له: أيّ شيء تعرف من الطّبّ؟ قال: أبرّد الحارّ وأسخّن البارد. وأرطّب اليابس، وأيبّس الرطب الخارج عن الطّبع (هذه أسس الأمراض ومداواتها عندهم) فضحك الخليفة وقال: هذا غاية ما يُحتاج إليه في صناعة الطّبّ.

(١) عيون الأنباء ٢/٤٣ ولمزيد من المعالجة النّفسية عندهم أنظر ما ورد من قصص وأمثلة في عيون الأنباء ٢١٢، ٣/٢١٣ في ترجمة رشيد الدّين أبو حُليقة.

ثم شرح له حال الصبيّة، فقال له جبرائيل: إن لم يسخط عليّ أمير المؤمنين فلها عندي حيلة. فقال له: وما هي؟ قال: تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجمع، حتى أعمل ما أريده (وهذا أمر من الصّعب قبوله على الرّشيد)، وتمهّلْ عليّ، ولا تعجلْ بالسخط، فأمر الرّشيد باحضار الجارية، فخرجت وحين رآها جبرائيل عدا إليها، ونكس رأسه، ومسك ذيلها، كأنه يريد أن يكشفها، فانزعجت الجارية، ومن شدّة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها، وبسطت يديها إلى أسفل، ومسكت ذيلها، فقال جبرائيل للرّشيد: قد برئت، يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد للجارية: إبسطي يديك يمنة ويسرة، ففعلت ذلك، وعجب الرّشيد، وكل من كان بين يديه».

وهذه الحادثة تذكّرني - يا بُنَيّ - بحادثة حصلت في الحرم المكّي أثناء الحرب العالميّة الثّانية، وكنّا نذهب ونحن في المرحلة الثّانويّة، نذاكر في الحرم، لأنّه المكان الوحيد الذي فيه كهرباء نستطيع أن نستفيد منها للمذاكرة. وكان يجلس بجوارنا رجال وقفوا أنفسهم على خدمة الحرم، والقيام بكنسه وتنظيفه، وكان أحدهم كرديّا ضخما قويّا في مظهره، ولكنه كان كثير المداعبة، ويحسن قصّ القصص، فكنّا نأنس به، ونلحظ في أقواله وتصرفاته العقل والرّزانة، وذات يوم ونحن جلوس تثاءب أحد المتَسَنِّنين أمام الكعبة بعد العشاء، ثم لم يستطع أن يطبق فكّه مرّة أخرى، وبقي فمه مفتوحا، واحتار النّاس فيه، فنادينا صاحبنا الكرديّ لما نعرفه عنه من حسن التّصرف، وكان عند حسن ظنّنا، إذ أخذ «غترة» أحدنا وطواها جيّدا وحشرها في فمه، وأخذ يحرّك يده بهدوء على جانبي وجهه، ويمرّر بهدوء يده تحت لحييه، وفجأة وبقوّة أطبق الحنك الاسفل إلى أعلى، وعاد الحنك إلى مكانه

الطبعيّ، وعرفنا فيما بعد أنّ الغترة كان الهدف منها أن تحمي اللّسان من الاسنان فيما لو دخل بينها، ولو فعل لانقطع اللّسان.

أرأيت كيف أن إعمال العقل مفيد، وهذا ليس طبيباً ولكنّ الله أعطاه الحكمة، وهي طبّ في ذاتها.

وما دمنا قبل قليل بدأنا الحديث عن المعالجة النّفسية، ولكنّها جرتنا إلى المعالجة الماديّة في ذكر الفكّ وما حدث له، فنعود إلى ما كنّا فيه خاصّا بهذا الجانب، والقصّة التي سوف أقصّها عليك هي عن أوحد الزّمان أبو البركات هبة الله بن علي ملكا البلدي، وهو طبيب مشهور، والقصّة نفسها تبين أهميّته[1]:

«كانت قد عرضت علّة الماليخوليا[2] لمريض، وكان يعتقد أنّ على رأسه دنّا، وإنه لا يفارقه أبدا، وكلما مشى يتحايد،

(١) عيون الأنباء ٢/٢٩٦.

(٢) لاهتمامهم بالماليخوليا ألفّ الطّبيب اسحق بن عمران كتابا متكاملا عنها ٣/٥٦.

ويتحاشى المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق، ولا يترك أحدا يدنو منه، حتى لا يميل الدنّ، أو يقع عن رأسه، وبقي هذا المرض مدة، وهو في شدة منه، وعالجه جماعة من الأطبّاء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به، وانتهى أمره إلى أوحد الزّمان، ففكّر أنه لم يبق شيء يمكن أن يبرأ به إلا بالأمور الوهميّة، فقال لأهله: إذا كنتُ في الدّار فأتوني به، ثم إنّ أوحد الزّمان أمر أحد غلمانه بأنّ ذلك المريض إذا دخل إليه، وشرع في الكلام معه وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنّه يسارع بخشبة كبيرة، فيضرب بها رأس المريض على بعد منه، كأنه يريد كسر الدنّ الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاما آخر، وكان قد أعدّ معه دنّا في أعلى السّطح، وأنّه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا أن يرمىَ الدّنّ الذي عنده بسرعة إلى الأرض.

ولما كان أوحد الزّمان في داره، وأتاه المريض، شرع في الكلام معه، وحادثه، وأنكر عليه حمله للدّنّ، وأشار إلى الغلام الذي عنده، من غير علم المريض، فأقبل إليه، وقال: والله لابدّ لي أن أكسر هذا الدنّ، وأريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة التي معه، وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدّنّ من أعلى السطح، فكانت له جلبة عظيمة، وتكسرّ قطعا كثيرة، فلما عاين المريض ما فعل به، ورأى الدنّ المنكسر. تأوّه لكسرهم إيّاه، ولم يشكّ أنه الذي كان على رأسه بزعمه، وأثّر فيه الوهم أثرا برئ من علته تلك».

ولعلّ هذا ـ يا بُنَيّ ـ يذكرك بقصّة الرّجل الذي كان متوهّما بأنه قد دخل في اذنه «صارور» (صرصار)، في حين أنّه لم يدخل في أذنه إلا وهمٌ بذلك، وعجز الاطبّاء عن نزع هذا الوهم من

ذهنه، أو ابعاد سيطرة هذه الفكرة من عقله، وعالجه طبيب بالوهم أيضا، إذْ أكّد له عندما كشف عليه أنّ باذنه صرصارا، وأنّه ميت، وأنّه سوف يخرجه غدا، واستعدّ في اليوم التّالي بصرصار ميت، وأخفاه عندما بدأ يعالج الرّجل، ثم سلّه من مخبئه، وأخذ يقطّعه أجزاء، موهما المريض بأنه يخرجه من اذنه، حينئذ فقط استراح المريض، ونام نوما هانئًا، بعد شقاء أيام طويلة.

والوهم[1] - يا بُنَيّ - من أعدى أعداء المريض، لأنّه مرض خياليّ، وانتزاعه يحتاج إلى حِيَل، وأحيانا لا يقضي عليه إلا وهم أكبر منه، نسأل الله السّلامة، وحتى نكمّل الصّورة في ذهنك عن أمور الطّبّ في عهد ازدهاره أيام العبّاسيين ومن أخذ أطباؤهم منهم، أذكر لك بعض ما قد يدهشك أن تعرفه لأنّك تظن أنه أمر لم يكن معروفا، وأنه لم يكتشف إلا حديثا، في حين أن ما هو موجود اليوم ما هو إلاّ

(١) وعن الوهم ونظرتهم إليه ومعالجتهم له انظر ما ذكر عن ذلك في ترجمة الطبيب التميمي ٣/١٤٥.

تطوير لما كان عليه القوم في تلك الفترة. وسوف لا أتعمّق في الأمر حتى لا تحتاط بعدم الاستماع، أو تلجأ إلى «السَّرَحان» وهو مخدّة مريحة لك عندما لا يعجبك شيء، وتظن أنني لا أعرف أنك سرحت في حين أن وجهك بكل ملامحه يفضح ذلك فعيناك تتركّز على شيء بعيد، وجلستك تستقر، وفمك تذهب عنه «بَزْمَته»، ويكون أقرب إلى الارتخاء، ويداك تستقران عن العبث بما كانتا تعبثان به من قبل، وقدماك تستقرّان عن الاهتزاز أو مداعبة ما أمامهما. هذا تشخيص لحالتك أوحاه الحديث عن الطّبّ، «ومن خالط القوم أربعين يوما صار منهم» هكذا يقول المثل العامّي، ونحن خالطنا الاطبّاء أكثر من ذلك، لم نخالطهم زملاء ولكن مرضى.

كانوا - يا بُنَيّ - يعرفون القرقرينا ويعالجونها بعلاجها الصّحيح، وهو قطع العضو المصاب. وهذه قصة من كتاب «عيون الانباء»[٢]، تريك ما

(٢) عيون الأنباء ٢/٢٩٨.

فعله أوحد الزمان في هذا المجال، وعجب من حوله من فعله، حدّث يوما عنه تلميذه أبو الفضل فقال:

«كنّا في خدمة أوحد الزّمان، في معسكر السّلطان، ففي يوم جاء رجل به داحس (داحوس)، إلّا أن الورم كان ناقصا، وكان يسيل منه صديد. قال: فحين رأى ذلك أوحد الزّمان بادر إلى سلاميّة أصبعه فقطعها، قال: فقلنا له: ياسيّدنا لقد اجحفت في المداواة، وكان يغنيك أن تداويه بما يداوي به غيرك، وتبقي عليه اصبعه، ولُمناه، وهو لا ينطق بحرف، قال: ومضى ذلك اليوم، وجاء في اليوم الثّاني رجل آخر مثل ذلك سواء، فأومأ إلينا بمداواته، وقال افعلوا في هذا ما ترونه صوابا. قال فداويناه بما يداوَى به الدّاحس، فاتّسع المكان، وذهب الظّفر، وتعدّى الأمر إلى ذهاب السّلاميّة الاولى من سلاميّات الاصبع. وما تركنا دواء إلّا وداويناه به، ولا علاجا إلّا

وعالجناه به، ولا لطوخا إلّا ولطخناه به، ولا مسهلا إلّا وسقيناه، ومع ذلك يزيد، ويأكل الاصبع أسرع أكل، وآل أمره إلى القطع. فعلمنا أنّ فوق كل ذي علم عليم. قال وفشا هذا المرض في تلك السّنة، وغفل جماعة منهم عن القطع، فتأدى بعضهم إلى اليد، وبعضهم إلى هلاك أنفسهم».

وكانوا - يا بُنَيّ - يجرون عمليّات في أدقّ المواضع، وأهمّها، وسوف أقصّ عليك قصّة كادت أن تنتهي بعملية في المثانة لاخراج حصاة منها، لولا أن الله سهّل خروجها على يد طبيب نطاسي[1]:

«مرض الخليفة النّاصر لدين الله سنة ثمان وتسعين وخمسمئة، مرضا شديدا، وكان المرض بالرّمل، وعرض له في المثانة حصاة كبيرة، مفرطة في الكبر، واشتدّ به الألم،

(١) عيون الأنباء ٢/ ٣٢٩، وعن التّشريح راجع القصّة الواردة في ١/ ١٢٢ من المرجع نفسه وراجع في ترجمة البيرودي، وتشريحه لسبع ليعرف عمل المعدة، ٣/ ٢٣٧.

وطـال المـرض، وكـان طبيبـه أبـو الخـير المسيحيّ، وكـان شيخـا حسنـا مسنا، وقد خدمـه مدّة طويلة، وكـان خبـيرا متقنـا للصّنـاعة، فامتدّ بالخليفة المرض، وضجر من المعـالجـات، فأشـير بأن تشقّ المثـانـة لاخـراج الحـصـاة، فسـأل عن حذّاق الجرائحيين، فأخبر برجل منهم، يقال له ابن عكـاشة، من ساكني الكرخ بجانب بغداد الغـربي، فأحضر وشـاهد العضو العليل، وأمره ببطّه.

فقال احتاج أن أشاور مشايخ الاطبّاء في هذا، (تـذكّـر هنا ـ يا بُنَيّ ـ الكونسلتو!)، فقـال: من تعـرف ببغداد من صالحي هذه الصّنـاعة؟ فقال: يامولانا استاذي وشيخي أبـو نصر سعيـد المسيحيّ، ليس في البلاد بأسرها من يماثله، فقال له الخليفة: إذهب إليـه، وأمـره بالحضـور. فلما حضر خدم، وقبّـل الأرض، فأمـره بالجلوس، فجلس

ساعـة، ولم يكلّمـه، ولم يأمـره بشيء حتّى سكن روعه، فلما أمن منه ذلك، قال له: يا أبـا نصر مثِّـل نفسـك أنّك قد دخلت إلى بمارستان (مستشفى)، وأنت تباشر به مريضا قد ورد من بعض الضّياع، وأريد أن تباشر مداواتي، وتعالجني في هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته. فقال: السّمع والطّاعة، ولكنّي احتـاج أن أعـرف من هذا الـطّبيب المتقـدّم مبادىء المرض، وأحواله وتغيّراته، وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن.

فأحضر الشّيخ أبو الخير، وأخذ يذكر له ابتـداءات المـرض، وتغـيرات أحواله. وما عالج به في أوّل الأمر، وإلى آخـر وقت. فقـال: التّـدبير صالح، والعلاج مستقيم، فقال الخليفة: هذا الشّيخ أخطأ، ولا بدّ لي من صلبه، فقام أبو النصر، وقبّل الأرض، وقال: يامولانا بالله لا تسنّ على الاطبّاء هذه السنة. وأما الرّجل فلم يخطئ في التدّبير،

ولكن لسوء حظّه لم ينته المرض، فقال الخليفة قد عفوت عنه، ولكن لا يعود يدخل عليّ. فانصرف.

ثم أخذ أبو نصر في مداواته، فسقاه، ودهن العضو بالادهان المليّنات، وقال له: إن أمكن أنّا نلاطف الامر بحيث تخرج هذه الحصاة من غير بطّ (جراحة) فهو المراد، وإن لم تخرج فذلك لا يفوتنا. فلم يزل كذلك يومين، وفي اليوم الثّالث رمى الحصاة، فقيل إنه كان وزنها سبعة مثاقيل، وقيل خمسة، وقيل إنّها كانت على مقدار أكبر نواة تكون من نوى الزّيتون»[1].

وكانوا يعرفون - يا بُنَيّ - رفض الاجسام للأعضاء التي تنفصل من الجسم ثم تعاد إليه، ولهم في ذلك كتابات، ونقل الاعضاء أمر لم نسمع عنه

(١) والبزل يقومون به لمعالجة الاستسقاء، ويعتبر عملية مهمة، انظر ما قام به موفّق الدين بن مطران - عيون الأنباء ٣/٢٩٤.

أنا وأنت إلا منذ عهد قريب، عندما تقدم الطّبّ، وأصبحت الاعضاء تنقل من شخص إلى شخص، فنُقل القلب، واعتبر حدثا في تاريخ الطّبّ في هذا القرن وانجازاته، ثم بعد فترة نقلت الكبد فكان حدثا آخر، وقبل ذلك نقلت الكلى، فاستمع إلى ما قاله صاحب كتاب عيون الأنباء[1]، عن الاعضاء التي تنقطع من جسم الانسان، ويحاول الاطبّاء إلصاقها، وقد يرفضها الجسم، أو على الاصحّ يتبرأ منها، وهو يتحدث عن أبي بكر محمّد بن زكريّا الرّازي، وهو يعدّد كتبه ورسائله، (لاحظ أنّه يتحدث عن «كناش» ويعني به الكتاب أو المؤلّف، ولعله أقرب إلى الملازم أو الرسائل المتخصصّة) وهو يتحدّث عما انقطع من جسم الانسان وأريد إعادته إليه، من أصبع ولسان وأذن مثلا:

«وله كناش عجيب في تجاريبه، ولكنّه قليل الوجود إلا في بغداد المحروسة، كتاب

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٦.

في العلة الّتي لها (كذا) صار متى انقطع من البدن شيء حتى (كذا) يتبرأ منه أنه لا يلتصق به، وإن كان صغيرا، ويلصق به من الجراحات العظيمة القدر، غير المتبرّئة، ما هو أعظم من ذلك كثيرا».

والجراحة في العيون متقدّمة، وسوف اقتصر على ما يتحدثون عنه في هذا الكتاب بين آن وآخر عن «القدح»، ويبدو أنّه يشبه إزالة الماء الأبيض من العين ومما ورد عرضا في ذلك[1] عن الرّازي:

«وكان الرّازي معاصرا لاسحق بن حنين ومن كان معه في ذلك الوقت، وعمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه، فقيل له: لو قدحت! فقال: لا، قد نظرت من الدّنيا حتى مللت، فلم يسمح لعينيه بالقدح».

وهل تذكر - يا بُنَيّ - دواء «الشّهاق» أو الفواق، أو «الفهّيقة»، أو «الزغطّة»، وكيف أنّها

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٠.

عندما تقع توقع الشّخص في ورطة، ودواؤها أن يبهت المبتلى بها بما يجعله ينسى نفسه، وينشغل بما بهت به، وتذكّر صديقك الذي أصابه الفواق، فاتّهمه والده بسرقة محفظة نقوده، وأخذ يتابع الادلّة التي على أساسها تأكّد من سرقته لها، والصبيّ يحلف الايمان المغلظة أنه لم يأخذها، ووالده يصرّ على ما يقول، ولم تنفع الصبيّ دموعه، ولا براهينه، فلما تأكّد الوالد أنّ الفواق قد ارتفع وانقطع طمأنه بأنّه إنّما داواه بالتّهمة عن الفواق، وقد نجح.

إنّ أطبّاء ذلك الزّمان كانوا يعرفون هذا الدّاء ودواءه، ولعلّه تسلسل إلينا منهم، فصرنا نداوي بداوئهم. هذا الطّبيب بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع يصف موقفا مرّ به، عالج به مريضته بما بهرها وأنساها الفواق[1]:

(١) عيون الأنباء ٢/٧٠.

«اشرفت زبيدة على التّلف من فواق شديد يسمع من خارج الحجرة، فأمر الخدم باصعاد خواب إلى سطح الصّحن، وتصفيفها حوله على الشّفير، وملأها ماء، وجلس الخدم خلف كل حبّ، حتى إذا صفق بيده على الأخرى، دفعوها دفعة (واحدة) إلى وسط الدّار، ففعلوا، وارتفع لذلك صوت شديد أرعبها، فوثبت، وزايلها الفواق».

في هذه القصّة شبه «مقلب» لعلّه أعجبك، ولعلّك اشتقت إلى بعض ما يدخل في هذا الباب، والاطّباء لا يخلون من روح المرح أحيانا، تسليهم عن بعض ما يمرّ بهم في عملهم من أمراض ترهق الرّوح، وقد اشتهر من بينهم بحبّ المداعبة الطّبيب سهل الكوسج، ومعنى الكوسج الذي لا ينبت له لحية، وقيل أنه كان ألحى وإنّما لقب بالكوسج على سبيل التّضاد، وإليك ما فعله على سبيل مقلب[1]:

(١) عيون الأنباء ٢/٩٩.

«خرج سهل في يوم الشّعانين، يريد دير الجاثليق، والمواضع التي تخرج إليها النّصارى في يوم الشّعانين، فرأى يوحنّا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته، وعلى دابّة أفره من دابته، ومعه غلمان له (في أحسن زيّ)، فحسده على الظّاهر من نعمته، فصار إلى صاحب مسلحة النّاحية، فقال له: إن ابني يعقّني، وقد أعجبته نفسه، وربما أخرجه العجب بنفسه، وبنعمته، إلى جحود أبوّتي، وإن أنت بطحته، وضربته عشرين درّة موجعة، أعطيتك عشرين دينارا، ثم أخرج الدّنانير، فدفعها إلى رجل وثق به صاحب المسلحة، ثم اعتزل ناحية إلى أن بلغ يوحنّا الموضع الذي هو فيه فقدّمه إلى صاحب المسلحة، وقال: هذا ابني يعقّني، ويستخفّ بي، فجحد أن يكون ابنه، فلم يكلّمه صاحب المسلحة، حتى

بطح يوحنّا، وضربه عشرين درّة، ضربا وجيعا مبرحا».

وهل تذكر ـ يا بُنَيّ ـ أنني حدّثتك عن الرّجل الذي جاء يشكو إلى الطّبيب بعض أعراض مرضٍ يعاني منه، فلما وصفها، دعا الطّبيب الله أن يجعل هذا الدّاء به لأنّه لم يكن داء، وإنّما كانت الشّهيّة الصّحيّة للطّعام. إنَّ الطّبيب هو «ماسرجويه»، متطبّب البصرة المشهور، واسمع القصّة كما وردت في عيون الانباء، ويأتيك بالاخبار من لم تزود[1]:

«كان (ماسرجويه) جالساً ينظر في قوارير الماء إذ أتاه رجل من الخزر، فقال له: إنّي بليت بداء لم يبل أحد بمثله، فسأله عن دائه، فقال: أصبح وبصري عليّ مظلم، وأنا أجد مثل لحس الكلاب في معدتي، فلا تزال هذه حالي حتى أطعم شيئا، فإذا طعمت سكن عني ما أجد إلى وقت انتصاف

(١) عيون الأنباء ٢/١٠٤.

النّهار، ثم يعاودني ما كنت فيه، فإذا عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت صلاة العتمة، ثم يعاودني فلا أحمد له دواء إلا معاودة الأكل. فقال (ماسرجويه): على هذا الداء غضب الله، فإنّه أساء لنفسه الاختيار حين قرنها بسفلة مثلك، ولوددت أن هذا الدّاء يحوّل إليّ، وإلى صبياني، وكنت أعوّضك مما نزل بك منه مثل نصف ما أملك، فقال الرجل: ما أفهم عنك! فقال له (ماسرجويه): هذه صحّة لا تستحقها، أسأل الله نقلها عنك إلى من هو أحقّ بها منك».

وهؤلاء الأطبّاء إضافة إلى طبّهم وحكمتهم فيهم شعراء فطاحل، فهذا أبو سليمان السّجستاني، وهذا أبو الفرج بن هندو، ولعلكّ تقرأ الأبيات التي وردت في ترجمته، ففيها شيء عجيب، هل سمعت بأحد يسرّ بالحَرب،

خاصّة وهو طبيب، إسمع لماذا رضي أن يصاب به[1]:

يهيج مسرّتي جرب بكفّي
إذا ما عدّ في الكرب العظام
تَجنّبني اللّئام لذاك حتى
كفيت به مصافحة اللّئام

وكثير مما يدور على ألسنة النّاس اليوم من قصص، قد يداخلنا الشك في مسايرتها لما يراه الطّبّ الحديث، ونظنّ أنّها أمور نبتت في أذهان بدائيّة، وقد نرفضها بسهولة، أو نقبلها تسلية، وإن أفسحنا لها مجالا في تفكيرنا فإنّما لأننا نريد من علماء الطّبّ الحديث أن يقولوا رأيهم فيها:

هل تذكر قصّة القراد (أو لعلها حلمة)، وهو الحشرة التي تلتصق بشدي الدّابة، فتمصّ من دمه، وتعيش على ذلك. ويقال

(١) عيون الأنباء ٢/٣٦٩.

إنّ هنـاك من ابـتلعهـا، ووقفت داخـل جرانه[1]، وسببت له آلاما مبرّحة، وأتت على صحّتـه وعـافيته، مما جعل علّته واضحة، ومـرضـه ظاهـرا، وأنّ شخصا عارفا أدرك سبب العلّة، فسلخ جلد ثدي بعير أو بقرة، وأدلاه في حلق المـريض، فأفلت القـراد ما كان ممسكـا به، عنـد شمّ رائحـة بيئته الطّبيعّية، وأمسك بالجلد المدلّى إليه، فجذبه مدلّيه، وأخرجه، فوجده قد نمى إلى ضعف ما كان عليه عندما دخل في حلقه.

والعلق - يا بُنَيّ - كان معروفا في المياه في نجد وغيرها، وكان النّاس عندما يريدون أن يشربوا، يضعون على طرف الوعاء الذي يشربون منه قطعة قماش، تحول دون دخول العلق إلى أجسامهم مع الماء.

ويقال أِن أحدهم ابتلع علقة. فمكثت عالقـة بمجـرى الماء في صدره، ومع طول

(١) لاحظ أنّها لم تنزل إلى المعدة وإلا قتلتها العصارة!

المـدّة سببّت له آلامـا، واعتلّت صحّتـه بسببهـا، وعـالجه أحد العارفين بأن أحضر «خوبان» أو «شبا» وهو الطحلب الذي ينمو في البرك والسّواقي، وقرّبه من فمه، فشمّت العلقة رائحته، وخرجت تريده.

إنّ ما كنّا نسمعه لم يكن وحي بيئتنا في نجد، أو قد يكون، ولكنْ هناك قصصا تُروى عن مثل ذلك في العصر العبّاسي، في بلد الطّبّ المتقدّم حينئذ، في العـراق، إسمع هذه القصّة وهي أيضا من كتاب عيون الانباء[1].

«قـدم غلام من بغـداد إلى الرَّي، وهو ينفث الـدّم، وكـان لحقه ذلك في طريقه، فاستدعى أبا بكر الرّازي، الطّبيب المشهور بالحذق، صاحب الكتب المصنفة، فأراه ما ينفث، ووصف ما يجد، فأخـذ الـرّازي مجسّتـه، ورأى قارورته، واستوصف حاله

(١) عيون الأنباء ٢/٣٤٦.

منذ بدأ ذلك به، فلم يقم له دليل على سلّ ولا قرحة، ولم يعرف العلّة، فاستنظر الرّجل ليتفكّر في الأمور، فقامت على العليل القيامة، وقال: «هذا يأس لي من الحياة»، لحذق المتطبّب، وجهله بالعلّة، فازداد ما به.

(وجاء في ذهن الرّازي أن يعيد استجوابه)، فسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنّه قد شرب من مستنقعات وصهاريج، فقام، في نفس أبي بكر الرّازي، الرأي، بحدّة الخاطر، وجودة الذكاء، أنّ علقة كانت في الماء، فحصلت في معدته[1]، وأنّ ذلك النّفث للدّم من فعلها، فقال له: إذا كان في غدٍ جئتك، وعالجتك، ولم أنصرف أو تبرأ، ولكن بشرط (أن) تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما آمرهم به.

(١) ان كانت وصلت حقّا إلى المعدة فعلى الاطبّاء المحدثين أن يفيدونا عمّا إذا كانت تنجو من حدّة عصارة المعدة.

فقال: نعم.

وانصرف الرّازي، فتقدّم، فجمع له ملء مركنين كبيرين من طحلب أخضر، فأحضرهما من غد، وأراه إيّاهما، وقال له: إبلع جميع ما في هذين المركنين. فبلع الرّجل شيئا يسيرا، ثم وقف، فقال: إبلع، فقال: لا أستطيع، فقال للغلمان: خذوه فأنيموه على قفاه، ففعلوا به ذلك، وطرحوه على قفاه، وفتحوا فاه، وأقبل الرّازي يدسّ الطّحلب في حلقه، ويكبسه كبسا شديداً، ويطالبه ببلعه شاء أو أبى، ويتهدّده بالضّرب، إلى أن بلع، كارها، أحد المركنين بأسره، والرّجل يستغيث فلا ينفعه مع الرّازي شيء، إلى أن قال السّاعة أَقذِف، فزاد الرّازي فيما يكبسه في حلقه، فذرعه القيء فقذف.

وتأمل الرّازي قذفه، فإذا فيه علقة، وإذا هي لمّا وصل إليها الطّحلب[1] قرمت إليه

(١) ترى ما مدى نظافة الطّحلب، وخلوّه من العلق أو بيضه !!

بالطّبع، وتـركت موضعهـا، والتفّت على الـطّحلب، فلما قذف الـرّجل خرجت من الطّحلب، ونهض الرّجل معافى».

وتذكّر - يا بُنَيّ - القصّة[1] التي أخبرتك أنّها كانـت تتـداول إلى زمـن قريب، بأنّ شخصـا رأى بيض حيّة، (النّاس إلى اليوم فريقـان، فريق يقـول: إن الحيّـة، خلافا للمعتاد، تلد، وفريق يقول إنها تبيض، تبعا للقاعدة التي تعرفها: وهي أنّ ما ليس له آذان بارزة يبيض)، فأراد الـرّجـل أن يداعب الحيّة، ويعرف ما ستفعل إذا أخذ بيضها، فحنقت الحيّة عندما جاءت فلم تجد بيضها في مكانه، فدخلت إلى المكان الذي فيه لبن في بيت الرّجل، وشربت منه، ثم مجّته مرّة أخـرى في الوعاء، وفيه طبعا ما يتوقع من السمّ، فلما عادت إلى بيتها وجدت البيض،

(١) يطغى الخيال في هذه القصص، فتتصرّف الحيوانات والدّوابّ تصرّفا هو أقرب إلى تصرّف الانسان ذي العقل والادراك.

فعـادت لتصلح ما أفسدته، ولتنقذ الرّجل من أن يموت بسمّها، (الذي وضع القصّة ـ يا بُنَيّ ـ لابد أنّ في فكره في هذه المرحلة من القصّـة أن الحيّة عرفت أنه مزاح، وهي لا مانع عندها من المداعبة، أو أنها ظنّت أنّها كانت واهمة في المرّة الأولى عندما ظنّت أنّ البيض لم يكن في مكـانـه ـ تفكير إنسان لا حيّـة!!)، فغمست نفسهـا في اللّبن (يعني أخــذت حمّام لبن!)، ثم ذهبت إلى مشبّ النّـار، «وتدغملت»، وقلبت جسمهـا في الرّماد، ثم عادت إلى وعاء اللّبن، فعكرت صفـاءه، ليعرف أهله أنّ فيه ما يجعله غير سائغ للشّرب. كلّ هذا والرّجل ينظر إليها فيما فعلته، وتمّت له التّجربة بهذا!!

هنـاك قصّـة ليست بعيدة عن هذه، وربما أنّها الأصــل في هذه مع بعض الـزّيـادة التي أوجبهـا اختلاف بيئة القاصّ. وهي مرويّة في كتاب عيون الانباء[1]، عن الرّازي، قال:

(١) عيون الأنباء ٢/٣٤٧.

اجتـزت في طريقي بنيسـابـور، بيقام، وهي النّصف من طريق نيسابور إلى الرّيّ، فاستقبلني رئيسهـا، وأنزلني داره، وخدمني أتمّ خدمة، وسألني أن أقف على ابن له به استسقـاء. فأدخلني إلى دار قد أفردها له، فشـاهـدت العليـل، فلم أطمـع في برئه، فعلّلت القــول بمشهـد من العليـل، فلمّا انفــردت أنــا بأبيــه سألني أن أصـدقـه، فصدقته، وآيسته من حياة ابنه، وقلت له: مكّنـه من شهواته فإنه لا يعيش، وخرجت من خراسـان، وعـدت منها بعد اثنى عشر شهرا، فاجتزت به، فاستقبلني الرّجل بعد عودتي. فلمّا لقيته استحييت منه غاية الحياء، ولم أشكّـك في وفـاة ابنه، وأنّي كنت نعيته إليه، وخشيت من تثقّله بي، فأنزلني داره، فلم أجد عنده ما يدلّ على ذلك، وكرهت مسألته عن ابنه، لئلا أجدّد عليه حزنا، فقال لي يوما: تعرف هذا الفتى؟ وأومأ إلى شابّ،

حسن الـوجه والصّحّة، كثير الدّم والقوّة، قائم مع الغلمان يخدمنا، فقلت: لا! فقال هذا ولدي، الذي آيستني منه عند مضيّك إلى خراسان، فتحيّرت، وقلت: عرّفني سبب برئه.

فقال لي: بعد قيامك من عنده فطن أنّك آيستني منه. فقال لي: لست أشك أنّ هذا الرّجل، وهو أوحد في الطّبّ في عصره هذا، قد آيسك منّي، والذي أسألك أن تمنع هؤلاء الغلمان، يعني غلماني الـذين كنت أخـدمـه إيّاهم، فإنهم اترابي، وإذا رأيتهم معافين، وقد علمت أنّي ميت، تجدّد على قلبي حمّى تعجّـل لي المـوت، فأرحني من هذا بأن لا أراهم، وأفْرِد لخدمتي فلانة، دايتي، ففعلت ما سأل، وكَان يُحمل إلى الدّاية كل يوم ما تأكله.

فلما كان بعد أيام حُمل إلى الدّاية مضيرة لتـأكـل، فتركتهـا بحيث يقـع عليهـا نظر

ولدي، ومضت في شغل لها، فذكرت أنها لمّا عادت وجدت ابني قد أكل أكثر ما كان في الغضارة، وبقي في الغضارة شيء يسير، مغيّر اللون، قالت العجوز: فقلت: ما هذا؟ فقال: لا تقربي الغضارة، وجذبها إليه، وقال: رأيت أفعى عظيما[1]، وقد خرج من موضع ودبّ إليها، فأكل منها، ثم قذف، فصار لونها كما ترين. فقلت أنا ميّت، ولا أودّ أن يلحقني ألم شديد، ومتى أظفر بمثل هذا! وأكلت من الغضارة ما استطعت، لأموت عاجلا وأستريح[2]، فلما لم استطع زيادة أكل رجعت إلى موضعي، وجئتِ أنت.

قالت: ورأيت المضيرة على يده وفمه، فصحت، فقال: لا تعملي شيئا، أو تدفني

---

(١) تلعب الأفعى، والمداواة منها، والمداواة بها، أو بسببها، دوراً كبيراً، انظر في ترجمة ابن الاصمّ الطبيب الحيّة التي دخلت في فم نائم، واعترضت ووقفت.

(٢) قاتل نفسه في النار، ولا أدلّ من هذه الحادثة في أنّ الصّبر مفتاح الفرج.

الغضارة بما فيها، لئلا يأكلها انسان فيموت، أو حيوان فيلسع انسانا فيقتله. ففعلتْ ما يقال. وخرجتْ إليّ، فلما عرّفتني ذلك ذهب عليّ أمري، ودخلتُ إلى ابني، فوجدته نائما، فقلت: لا توقظوه حتى ننظر ما يكون من أمره، فانتبه آخر النّهار، وقد عرق عرقا شديدا، وهو يطلب المستحمّ، فأُنهض إليه، فاندفع بطنه، وقام من ليلته، ومن غد، أكثر من مئة مجلس، فازداد يأسنا منه، وقلّ القيام بعد أن استمر أياما، وطلب فراريج فأكل، ولم تزل قوته تثوب إليه. وقد كان بطنه التصق بظهره، وقوي طمعنا في عافيته، فمنعناه من التخليط، فتزايدت قوّته، إلى أن صار كما ترى[1].

فعجبت من ذلك، وذكرت أنّ الأوائل قالت: إن المستسقِي إذا أكل من لحم حيّة

(١) تلعب الحيات دوراً في المعالجة الشعبية، انظر نشوار المحاضرة ٣/١٦٤ ففيها شيء عن ذلك. والعامة في نجد يعتقدون أن الحية إذا قتلت، وسورع في كحل العين بذيلها، فان العين تستفيد.

عتيقة مزمنة، لها مئون سنين برأ، ولو قلت لك إن هذا علاجه، لظننت أني أدافعك، ومن أين نعلم كم سنـوّ (كـذا) حيّـة إذا وجدناها، فسكتّ (عن ذكر ذلك لك)[1].

وتـذكر ـ يا بُنَيّ ـ ما كان يتحدّث به أحد كبار السّنّ أمامك، من أن النّمس أو أبو عرس، عندما يقاتل الحيّة يحرص أن يكون قرب شجرة الرمرام، فإذا أخـذت منـه غرّة ولـدغتـه، ذهب إلى هذه الشّجـرة، ومـرّغ جسمـه عليهـا، فاتّقى بهذا شرّ سمّهـا، ثم يعـود إليهـا ليقـاتلها حتى ينال منها، ويقضي عليهـا. ولقد وجدتُ شيئا مثل هذا لدى القدامى من أهل الطّبّ، وإليك ما ذكروه[2].

«حكي أنّ إنسـانـا رأى (طير) الحُبارَى تقاتل الأفعى، وتنهزم عنها إلى بقلة، تتناول منهـا، ثم تعـود لقتالها، وإنّ هذا الانسان

(١) ترى هل الحقيقة، إن صح أن الرّازي رواها حقا، تكمن في أن الصبي عالجه طبيب آخر فمن باب الادب ذكر والده للرّازي ما ذكره.

(٢) عيون الأنباء ١/٢٥ .

عاينها، فنهض إلى البقلة، فقطعها عند اشتغال الحُبارى بالقتال، فعادت الحُبارى إلى منبتها، ففقدتها، وطافت عليها، ولم تجدها، فخرّت ميتة، فقد كانت تتعالج بها.

وابن عرس يستظهر في قتال الحيّة بأكل السذاب».

وقد أتى المؤلف بكثير من هذه الأمور في هذا الباب، ويمكنك الرّجوع إليه.

وأود - يا بُنَيّ - في هذه المرحلة من الحديث، أن أفتح لك نافذة صغيرة، تطلّ منها على عقول هؤلاء الاطباء الحكماء، ومدى عمق ثقافتهم، وحدّة تفكيرهم وذكائهم، ونظرتهم العامّة إلى الحياة، وإلى ما يدور حول نهضتهم. وهي أمور تعتبر إطارا لما يأتي منهم في مجال المعالجة، وأحيانا هو أسّ من أسسها:

يقول أبو بكر الرّازي: «الحقيقة في الطّبّ غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصّه

الكتب، دون اعمال الماهر الحكيم برأيه، خطر»[1].

وهذا يؤكد ـ يا بُنَيّ ـ أنّ الأمر ليس أمر حفظ فقط، ولكن لا بدّ أن يساعدك فيما تأخذ من الكتب مما هو حصيلة تجارب الآخرين، رأي تديره في ذهنٍ قادر على التدبّر والتبصّر والتصرّف.

ويقول الرّازي أيضاً:

«الاستكثار من قراءة كتب الحكماء، والاشراف على أسرارهم، نافع لكل حكيم عظيم الخطر»[1].

وقال:

«العمر يقصر عن الوقوف على فعل كلّ نبات في الأرض، فعليك بالاشهر مما أُجمع عليه، ودع الشاذّ، واقتصر على ما جربت»[3].

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥٠.

(٢) عيون الأنباء ٢/٣٥٠.

(٣) عيون الأنباء ٢/٣٥٠.

obeikandl.com

هذا في زمنه، فكيف إذا أضيف ما عرف في زمنه إلى ما عرف في زمننا. وربما أنّ هذا ما دعا القوم في زماننا ـ يلجؤون إلى التخصص، ثم التخصّص الدّقيق، أو تخصّص التّخصّص، إذا صحّ هذا التعبير.

وقال :

«الناقهون من المرض إذا اشتهوا من الطّعام ما يضرّهم فيجب للطّبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطّعام، ويصرفه إلى كيفيّةٍ موافقة، ولا يمنعهم ما يشتهون بتة[1]، » (لعلها البته).

وهذه حيلة ناجحة، فهم يأكلون في نظرهم ما يشتهون، والحقيقة أنّهم يأكلون ما يعرف الطّبيب أنه يناسبهم، لأنّ ظاهره، ما يشتهون، وباطنه ما يسمح به المرض.

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

وقال :

«ينبغي للطّبيب أن يوهم المريض أبداً الصّحة، ويرجّيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لاخلاق النّفس»[1]

وقال :

«ينبغي للطّبيب أن لا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولّد عنه علّته من داخل ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى»[2].

وقال :

«ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الاطبّاء، فخطؤه في جنب صوابه يسير جداً»[3].

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٢) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٣) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

وقال :

«من تطبّب عنـد كثيرين من الاطبّاء يوشك أن يقع في خطأِ كلّ واحد منهم»[1].

وقال :

«إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السّعادة»[2].

وقال :

«مـا اجتمـع الاطبّاء عليه، وشهد عليه القيـاس، وعضّـدتـه التّجـربـة، فليكن أمامك، وبالضّدّ»[3].

وأظنّ ـ يا بُنَيّ ـ في كل ما قلناه ما لا يخالفه حملة الطّبّ الحديث، وهو قواعد عامّة يقوم عليها خلق الطّبّ في كلّ زمن.

---

(١) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٢) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

(٣) عيون الأنباء ٢/٣٥١ .

obeikandl.com

وهؤلاء الاطبّاء الذين عرفوا بالحذق في الطّبّ، وصفاء الحكمة، لهم كلمات مأثورة حميدة عن تجاربهم في الحياة، تلمس الرّوح بعلاج لا يقلّ جودة ونجاحا عن نجاحهم في طبّ الجسد، وقد تعجب من توافق ما يقولون مع ما يدعو إليه الدّين، ولكن كلّ نتاج العقل الصّحيح يتّفق مع الدّين:

هذا اسقليبيوس ينقل عنه الأمير أبو الوفاء المبشّر ابن فاتك في كتابه: «مختار الحكم، ومحاسن الكلم» أنّه كان يقول:

«إنّ أحدكم بين نعمة من بارئه، وبين ذنب عمله، وما يصلح هاتين الحالتين إلاّ الحمد للمنعم، والاستغفار من الذّنب»[1].

وقال:

«كم من دهر ذممتموه، فلما صرتم إلى غيره حمدتموه، وكم من أمر أبغضت أوائله،

(١) عيون الأنباء ٣٦/ ١.

وبكي عند أواخره عليه»[1].

وقال:

«فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها»[2].

وقال:

«اعطاء الفاجر تقوية له على فجوره، والصنيعة عند الكفور إضاعة للنّعمة، وتعليم الجاهل ازدياد في الجهل، ومسألة اللّئيم إهانة للعرض»[3].

وقال:

«إنّي لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضّرر، ولا يدع الذّنوب مخافة الآخرة»[4].

(١) عيون الأنباء ١/٣٦.
(٢) عيون الأنباء ١/٣٦.
(٣) عيون الأنباء ١/٣٦.
(٤) عيون الأنباء ١/٣٦.

وقيل له صف لنا الدّنيا فقال:

«أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل»[1].

ولأ بقراط حِكَم اشتهر بها منها:

«كلّ مرض معروف السّبب مرجو الشّفاء»[2].

وقال:

«إن النّاس اغتذوا في حال الصّحة بأغذية السّباع فأمرضتهم، فغذوناهم بأغذية الطّير فصحّوا»[3].

وقال:

«لا تشرب الدّواء إلّا وأنت محتاج إليه،

---

(١) عيون الأنباء ٣٦/ ١.

(٢) عيون الأنباء ٤٨/ ١.

(٣) عيون الأنباء ٤٨/ ١.

فإن شربته من غير حاجة، ولم يجد داء يعمل فيه، وجد صحّة يعمل فيها، فيحدث مرضا»[1].

وقال :

«العافية ملك خفيّ، لا يعرف قدرها إلا من عدمها»[2].

وقيل له أيّ العيش خير قال :

«الأمن مع الفقر خير من الغنى مع الخوف»[3].

وقال :

«محاربة الشّهوة أيسر من معالجة العلّة»[4].

---

(١) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٢) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٣) عيون الأنباء ١/٤٨ .
(٤) عيون الأنباء ١/٤٩ .

ودخل على عليل فقال :

«أنـا والعلّة وأنت ثلاثـة، فإن أعنتني عليها بالقبول منّي لِمَا تسمع، صرنا اثنين، وانفردت العلّة، فقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه»[1].

ولما حضرته الوفاة قال :

«خذوا جامع العلم منّي: من كثر نومه، ولانت طبيعته، وندیت جلدته، طال عمره»[2].

وقد أثر عنه قوله :

«العلم كثـير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما يبلغك قليله إلى كثيره»[3].

وقال :

«استـدامة الصّحة تكون بترك التّكاسل

(١) عيون الأنباء ١/٤٩ .
(٢) عيون الأنباء ١/٤٩ .
(٣) عيون الأنباء ١/٤٩ .

عن التّعب، وبترك الامتلاء من الطّعام والشّراب»[1].

وقال :

«الاقلال من الضّار، خير من الاكثار من النّافع»[2].

ويروى عن فيثاغورس قوله :

«الانسان الذي اختبرته بالتّجربة، فوجدته لا يصلح أن يكون صديقا وخِلّا، إحذر أن تجعله لك عدوّا»[3].

وقال :

«الأخلق بالانسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهي»[4].

---

(١) عيون الأنباء ١/٥٠ .
(٢) عيون الأنباء ١/٥٠ .
(٣) عيون الأنباء ١/٦٦ .
(٤) عيون الأنباء ١/٦٦ .

وقال :.

«ينبغي أن يعرف الوقت الذي يحسن فيه الكلام، والوقت الذي يحسن فيه السكوت»[1] .

وقال :

«ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق فصبر واحتمل، ولكنّ الحكيم من حمل عليه أكثر مما تحتمل الطّبيعة فصبر»[2] .

أمّا سقراط فأوصله علمه وحكمته إلى معرفة حقائق الكون، فآمن بالله، وكفر بالاصنام التي كان يعبدها قومه، ولما سأله تلاميذه عنها: «صدّهم عنها، وأبطلها، ونهى النّاس عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الإله الواحد الصمد، البادئ ، الخالق

---

(١) عيون الأنباء ٦٦/١ .

(٢) عيون الأنباء ٦٦/١ .

obeikandi.com

للعالم بما فيه، الحكيم القدير، لا الحجر المنحوت، الذي لا ينطق، ولا يسمع، ولا يحسّ بشيء من الآلات، وحضّ النّاس على البرّ، وفعل الخيرات، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن الفواحش والمنكرات»[1].

وشهر عنه أقوال من الحكمة، أصبحت على الألسن، منها قوله: «عجبا لمن عرف فناء الدّنيا كيف تلهيه عمّا ليس له فناء»[2].

وقال:

«النّفوس أشكال فما تشاكل منها اتّفق، وما تضادّ منها اختلف».

وقال:

«النّفس جامعة لكلّ شيء، فمن عرف نفسه عرف كلّ شيء، ومن جهل نفسه جهل كلّ شيء»[3].

(١) عيون الأنباء ١/ ٧١.
(٢) عيون الأنباء ١/ ٧٤.
(٣) عيون الأنباء ١/ ٧٥.

وقال :

«من بخل على نفسه فهو على غيره أبخل»[1] .

وقال :

«ستة لا تفارقهم الكآبة : الحقود والحسود، وحديث عهد بغنى، وغني يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم»[2] .

وقال :

«من ملك سرّه، خفي على النّاس أمره»[3] .

وقال :

«خير من الخير من عمل به، وشرّ من

(١) عيون الأنباء ٧٥/ ١ .
(٢) عيون الأنباء ٧٥/ ١ .
(٣) عيون الأنباء ٧٥/ ١ .

الشرّ من عمل به»[1].

وقال:

«العقول مواهب، والعلوم مكاسب»[2].

ولـه حكم كثـيرة، لعلّك ترجـع إليهـا في هذا المـرجع، أو في غيره، ففيها عصارة فكر، ونتيجة تجارب، وحصيلة عمر، وعلم وتروّ وتدبّر وتبصّر، تُهدَى إليـك مهيّأة معدّة ميَسّرة، وقد تعبت عليها أجيـال، سلسلوهـا لك مع الـزّمن، وحفـظوها، فآعرف قدرها، واعطها حقها، بقبولها والعمل بها، تساهم في حصد ثمرتها، وجني طرحها الخيّر. وتملأ نفسك برضاك عنها في ضوء ما وفرت لنفسك من معلومات، عملت بها، وصرت قدوة لغيرك، ممن هم في حاجـة إلى القدوة، ممّن حولك، أقرباء أو أصدقاء أو زملاء.

---

(١) عيون الأنباء ١/٧٥.

(٢) عيون الأنباء ١/٧٥.

وهذا ـ يا بُنَيّ ـ ارسطوطاليس يقول من مقالته المشهورة، عندما أحجم غيره عن الكلام، وازدرته العيون، ولكنّه أجاد في القول، وأحسن في التعبير، في مقال طويل ،أمام مشهد عظيم، وصبّ في الآذان من الأقوال الحكيمة ما شنّف الأسماع، وأبهج النّفوس، ورفعه عند القوم مكانا عليا.

يقول في بعض ما قال[1]:

«أيها الأشهاد! بالعقول تفاضل النّاس لا بالأصول، وعَيْتُ عن أفلاطون الحكيم: الحكمة رأس العلوم، والآداب تلقيح الأفهام، ونتائج الأذهان. وبالفكر الثّاقب يدرك الرأي العازب، وبالتأنّي تسهل المطالب، وبلين الكلم تدوم المودّة في الصّدور، وبخفض الجناح تتمّ الأمور، و بسعة الأخلاق يطيب العيش، ويكمل السّرور، وبحسن الصّمت جلال الهيبة،

(١) عيون الأنباء ٩٦/ ١ .

وبإصابة المنطق يعظم القدر، ويرتقي الشّرف، وبالتّواضع تكثر المحبة، وبالعفاف تزكوا الأعمال، وبالأفضال يكون السّؤدد، وبالعدل يقهر العدوّ، وبالحكم تكثر الأنصار، وبالرّفق تستخدم القلوب، وبالأيثار يستوجب اسم الجود، وبالأنعام يستحق اسم الكرم،

وهي مقالة طويلة تسير على هذا المنهاج، تبيّن الفضائل وأسبابها، وكيفيّة الاتصاف بها. فإن أردت المزيد منها فارجع إلى هذا المرجع القيّم».

وله في بعض أبواب الحكمة[1]:

«إعلم أن من علامة تنقّل الدّنيا، وكدر عيشها، أنّه لا يصلح منها جانب إلا بفساد آخر، ولا سبيل لصاحبها إلى عزّ إلّا باذلال، ولا استغناء إلّا بافتقار. وأعلم أنّها ربما

(١) عيون الأنباء ٩٨/١ .

أصيبت بغـير حزم في الرأي، ولا فضل في الـدّين، فإن أصبت حاجتـك منهـا وأنت مخطئ ، أو أدبرت عنك وأنت مصيب، فلا يستخفّك ذلك إلى معاودة الخطأ، ومجانبة الصّواب» .

وقال :

«إعلم أنّه ليس من أحد يخلو من عيب، ولا من حسنــة، فلا يمنعـك عيب رجـل من الاستعانة به فيما لا نقص به فيه، ولا يحملنّك ما في رجل من الحسنات على الاستعانة به فيما لا معونة عنده عليه، واعلم أنّ كثرة أعوان السّوء أضرّ عليك من فقد أعوان الصّدق» .

وقال :

«العدل ميزان الله عَزّ وجلّ في أرضه، وبه يؤخـذ للضّعيف من القويّ، وللمحقّ من المبطل، فمن أزال ميزان الله عما وضعه بين

obeikandi.com

عباده فقد جهل أعظم الجهالة، واغترّ بالله، سبحانه، أشدّ اغترار»[1].

وقال:

«العالم يعرف الجاهل، لأنّه كان جاهلا، والجاهل لا يعرف العالم لأنّه لم يكن عالما»[1].

وقال:

«ليس طلبي للعلم طمعا في بلوغ قاصيته، ولا الاستيلاء على غايته، ولكن التماساً لما لا يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل خلافه»[1].

وقال:

«كن رؤوفا رحيما، ولا تكن رأفتك فسادا لمن يستحقّ العقوبة، ويصلحه الأدب»[1].

---

(١) عيون الأنباء ١/٩٨.

وقال :

«من أفـرط في اللّوم كره النّاس حياته، ومن مات محموداً كان أحسن حالا ممن عاش مذموما»[1]» .

وكتب إلى الاسكندر في وصايا له :[1]

«إنّ الأردياء (أي الرّديئين) ينقادون بالخوف، والأخيار ينقادون بالحياء، فميّز بين الطّبقتين، واستعمل في أولئك الغلظة والبطش، وفي هؤلاء الأفضال والاحسان» .

ما رأيك ـ يا بُنَيّ ـ لو أنّك جلست مجلس الحكمة مثلما جلس، وسئلت مثل ما سئل : «ما الشيء الذي لا ينبغي أن يقال وإن كان حقاً؟ حقّا إنّه لغز، ولا يستطيع الاجابة عليه إلا حكيم . وإذا كنت مبتعدا في تفكيرك عن حلّه، فجواب أرسطوطاليس كان السّهل الممتنع .

---

(١) عيون الأنباء ٩٩/ ١ .

لما سئِل هذا السؤال قال:

«مدح الإنسان نفسه».

ولما قيل له: لم حَفِظت الحكماء المال؟ قال:

«لئلا يقيموا أنفسهم المقام الذي لا يستحقونه».

وقال:

«امتحن المرء في وقت غضبه لا في وقت رضاه»[1].

ولعل هذا - يا بُنَيّ - يكفي في معرفة اتجاه فكر هذا الحكيم، ولعلك استفدت كما أمّلت فيك أن تستفيد.

وهناك أمر أطرقه لطرافته، ولأنه يدخل في أمر الطّبّ، ولأنّنا تحدّثنا يوما عن جانب منه، وهذا الجانب هو «المِعْيَاره» أو «المُعَايبة» أو اللقب الذي لا

(١) عيون الأنباء ١/١٠٠.

يرضي، وطرافته وغرابته فيما أوصل إليه من كسب عظيم، ومهنة محترمة، وفائدة مؤكدة لصاحبه:

تحدث الطبيب أبو بكر القاضي ابن أبي الحسن الزهري، قال:

كنت كثير اللعب بالشّطرنج، ولم يكد يوجد من يلعب به مثلي في اشبيلية، إلّا القليل، فكانوا يقولون: أبو بكر الزّهري الشّطرنجي، فكان إذا بلغني ذلك أغتاظ منه، ويصعب علي، فقلت في نفسي، لابدّ أن أشغل عن هذا بشيء غيره من العلم، لأنعت به، ويزول عني وصف الشّطرنج، وعلمت أنّ الفقه، وسائر الأدب، لو اشتغلت به عمري كله لم يخصّني منه وصف أنعت به، فعدلت إلى أبي مروان عبدالملك ابن زهر (الطّبيب)، واشتغلت عليه بصناعة الطّب، وكنت أجلس عنده، وأكتب لمن جاء مستوصفا من المرض الرّقاع، واشتهرت بعد

ذلك بالطّبّ، وزال عنّي ما كنت أكره الوصف به[1].

هل تتصوّر طبيبا، اليوم يدرس الطّبّ لأنّ أحداً عاب عليه شيئا، جعله لقبا له، على أيّ حال، همّة الرّجال لا يقف أمامها أحد، إذا كان وراءها تصميم وعزم، وأوقد تحتها ما يجعل مرجلها يغلي، ونارها تتقّد بلهب يدفع إلى الأمام أو إلى أعلى.

ولم يكن غريبا - يا بُنَيّ - أن يختار هذه المهنة، لأنّها كما يبدو كانت مهنة محترمة عند النّاس، لاحترام أهل المهنة أنفسهم لها، وابتعادهم عمّا يشينها، بدليل أنّ أصحابها يوصفون بالحكمة، والمبرز فيهم يتّصل سببه بالسّلطان، ومن الأمور التي تدلّ على ما يحرص أصحابها على إبقائه لها من المهابة والشّرف القصّة التالية، وهي تُروى عن الطبيب جمال الدين بن أبي الحوافر:

---

(١) عيون الأنباء ٣/١٣١.

ركب يومـا فرأى في بعض النّواحي على مسـطبّـة بيـاّع حمّص مسلوق، وهو قاعد، وأمـامه كحّال يهودي، (والكحل من عمل الـطّبيب، ولعلّه هنـا كان مبتـدئـا)، وهـو واقف، وبيده المكحلة والميل، وهو يكحل ذلك البيّاع (الجالس)، فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه، وضربه بالمقرعة على رأسه، وشتمه، وعندما مشى معه (الكحّال) قال له: إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أَمَا للصّنـاعـة حرمة؟ كنت قعدت إلى جانبه، وكحلتـه، ولا تبقَى واقفا بين يدي عامّيّ، بيّاع حمّص. فتاب (الكحّال) أن يعود ليفعل مثل ذلك الفعل، وانصرف[1].

ولا تعجب ـ يا بُنَيّ ـ من ارتقاء مستواهم، وهم بهذه الحكمـة والمنـزلـة، ولم تأتهم سهلة، ولكنّهم استحقّـوهـا بتثقيف أنفسهم ثقافة استحقّوا بها ما

(١) عيون الأنباء ٣/١٩٨.

نالـوا. فكانوا يقرؤون كثيرا، ويقتنون الكتب في كل فنّ:

هذا أفـرائيم بن الـزّفـآن، من أطبّـاء مصر المشهورين، كانت له همّة عالية في تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كان عنده خزائن من الكتب الـطّبيّة وغيرها، وكان أبداً عنده النّساخ يكتبون، ولهم ما يقـوم بكفـايتهم منـه. وقد جاء رجل من العراق ليشتري كتبا، ويتوجّه بها، وإنّه اجتمع مع أفرائيم، واتفق الحال فيما بينهما أن باعهُ افرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلّد، وكان ذلك في أيـام ولايـة الأفضل ابن أمير الجيوش، فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في الدّيار المصريّة، ولا تنقـل إلى موضع آخر، فبعث إلى افرائيم من عنـده بجملة المـال الذي كان قد اتّفق تثمينه بين افرائيم والعراقي[1].

ولا تعـجـب ـ يا بُنَيّ ـ من تعـلّقهم بالكتب،

(١) عيون الأنباء ١٧٤ ـ ٣/١٧٥.

وتقديرهم لها، واحتيازها، فاسحق بن سليمان قد نيّف على مئة سنة، ولم يعقّب ولدا، فلما قيل له:

أيسرّك أنّ لك ولدا؟

قال: أما إذْ صار لي كتاب «الحمّيات» فلا.

يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحمّيات أكثر من بقاء ذكره بالولد.

ويروى عنه أنه قال:

لي أربعة كتب، تحيي ذكري أكثر من الولد، وهي كتاب «الحمّيات»، وكتاب «الأغذية والأدوية»، وكتاب «البول»، وكتاب «الاسطقسات»[1]، وكان مستواهم المعيشي يعطيهم مكانة مرموقة في المجتمع، والاقبال على هذه المهنة يجعل عملهم في التّدريس مطلوبا، ويُتحمل فيه كل عناء، ورد في ترجمة أبو الفضائل النّاقد ما مؤدّاه:[2]

(١) عيون الأنباء ٣/٥٨.

(٢) عيون الأنباء ٣/١٩١.

كان كثير المعاش[1]، حتى أنّ الطّلبة والمشتغلين عليه كانوا في أكثر أوقاته، يقرؤون عليه وهو راكب، وقت مسيره، وافتقاده المرضى.

ويبدو أن الكسب عند بعضهم لم يكن هو الأهمّ، ولعلّ لثقافتهم، وعلوّ منزلتهم في المجتمع ما يجعلهم يأتون بما لا يستطيع الانسان العاديّ أن يأتي به، تقديرا للصّحة والعافية، وعدم اهدارهما بالارهاق والسعي وراء المال، وإذا كان أبو الفضائل قد تبرّع بمكسب يوم من دخله من الكحل وكحل النّاس، فعلي بن رضوان يلمح إلى أهمّيّة الرّياضة عندهم، وعدم أهمّية الرّكض وراء الرّبح.

فيقول:

إذا كان للإنسان صناعة ترتاض بها أعضاؤه، ويمدحه بها النّاس، ويكسب بها

(١) انظر مدخوله في يوم واحد من الكحل عيون الأنباء ٣/١٩١ وتصدّقه به جميعه قبل أن يعرف كم هو.

كفايته في بعض يومه، فأفضل ما ينبغي له في باقي يومه أن يصرفه في طاعة ربّه[1].

ويقول:

أتصرّف كلّ يوم في صناعتي بمقدار ما يغني، ومن الرّياضة، التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة في الرياضة، غذاء أقصد به حفظ الصحة[2].

وحكمته لا تقتصر على هذا الجانب من بدنه، وإنها تتعدّى إلى النّاحية النّفسيّة التي تأتي براحة البال، وطمأنينة النّفس، يشتريها بتضحية، هي عنده ثمن بخس مقابل ما تأتيه به من فائدته:

«لا أسلّف، ولا أتسلّف، إلّا أن أضطر لذلك، وإن طلب منّي أحد سلفا وهبت منه، ولم أرد منه عوضا»[3].

---

(١) عيون الأنباء ١٦٩ - ٣/١٧٠.

(٢) عيون الأنباء ٣/١٦٥ ويستمرّ فيتحدّث عن بقيّة برنامجه اليوميّ الموزون.

(٣) عيون الأنباء ٣/١٦٦.

وما دمنا بصدد الحديث عن هذا الطّبيب الحكيم، فيحسن أن أطلعك على بعض الجوانب الأخرى من تفكيره، وثقافته، ونظرته للحياة، ولمهنته، ومثل هذا الرّجل لابدّ أنّ المريض يطمئنّ إليه إذا سلّم نفسه له ليداويه، يقول عن المداواة:

«إذا دعيت إلى مريض فاعطه مالا يضرّه إلى أن تعرف علّته، فتعالجها عند ذلك، ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أي خلط[1] حدث أولا، ثم تعرف بعد ذلك في أيّ عضو هو، وعند ذلك تعالجه[2]».

أما التشخيص فرأيه أن:

«تعرف العيوب (و) هو أن تنظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة، والمزاج، وملمس البشرة، وتتفقّد أفعال الأعضاء الباطنة والظّاهرة، مثل أن تنادي به من بعيد، فتعتبر

(١) الاخلاط عندهم أساس في تأثير الأجسام واعتلالها وصحّتها.
(٢) عيون الأنباء ٣/١٧١.

بذلـك حال سمعـه، وأن تعتبر بصره بنظر الأشيـاء البعيـدة والقـريبة، ولسانه بجودة الكلام، وقوّته بشيل الثّقل والمسك والضّبط والمشي، وأنحـاء ذلك، مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره، ممدود اليـدين، قد نصب رجليـه وصفّهما، وتعتـبر بذلك حال أحشائه، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق، ومزاج كبده بالبول، وحال الاخلاط.

وتَعتَبر عقله بأن يُسأل عن أشياء، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء وأخلاقه إلى ما تميل بأن تَعتَبر كل واحد منها بما يحرّكه أو يسكّنه.

وعلى هذا المثال إجر الحال في تفقّد كل واحد من الأعضاء والأَخلاق.

أما فيما يمكن ظهوره للحسّ فلا تقنع فيه حتى تشـاهـده بالحسّ، وأمـا فيـما يتعرّف بالاستـدلال ما يستـدلّ عليـه بالعـلامـات

الخاصّة. وأمّا فيما يتعرّف بالمسألة فأبحث عنه بالمسألة، حتى تعتبر كلّ واحد من العيوب، فتعرف هل (هناك) عيب حاضر، أو كان، أو متوقّع، أم الحال حال صحّة وسلام»[1].

قارن هذا - يا بُنَيّ - بقصّة ابن الطّيب الذي لم يدرس الطّبّ، وأراد أن ينفّذ وصيّة والده بعد وفاته، وكيف أنّه لم يتمكنّ من أن يحل محلّه. هل تذكرها[2]؟

ونعود مرة أخرى - يا بُنَيّ - إلى علي بن رضوان الحكيم، لتعرف من أين غرف طبّه، وحكمته، وتعرف أنّ ثقافته لم تأت من قريب، وإنّما غاص إليها، عابرًا القرون، واختار ما هداه الله إليه، مما ينفع نفسه ومرضاه[3]:

---

(١) عيون الأنباء ١٧٠ - ٣/١٧١.

(٢) راجع «أيْ بُنَيّ» ٢٣٢/ ١ الطبعة الثالثة.

(٣) عيون الأنباء ٣/١٧٠.

يقـول :

«الــطّبيب على رأي بقــراط هو الـذي اجتمعت فيه سبع خصال :

الأولى : «أن يكون تامّ الخلق، صحيح الأعضـاء، حسن الـذّكـاء، جيّد الرويّة، عاقلا، ذكورا، خيّر الطبع».

الثانية : أن يكون حسن الملبس، طيّب الرّائحة، نظيف البدن والثّوب.

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة : أن تكون رغبته في ابراء المرضى أكثـر من رغبتـه فيـما يلتمسـه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخــامســة : أن يكـون حريصـا على التّعليم، والمبالغة في منافع النّاس.

السادسة : أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللّهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النّساء، والأموال التي شاهدها في منازل الاعلاء، فضلا عن أن يتعرّف إلى شيء منها.

السابعة : أن يكون مأمونا، ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواءً قتّالا، ولا يعلِّمه، ولا دواءً يسقط الأجنّة، يعالج بنيّة صادقة لما يعالج (به) حبيبه[1].

وقد ذكرت لك منذ قليل المشقّة التي يتعرضون لها في الدّراسة، والسّعي إلى الحصول على معلوماتهم في الطّبّ، فيسايرون المدرّس في ركوبه، وفي مروره على المرضى يأخذون منه، وقد يذهبون شبابا في بعثات إلى خارج قطرهم هذا رشيد الدّين أبو حليقة يأتمر لأمر الملك العادل فيرسل ابنه إلى

(١) ويتحدّث بعد ذلك عن صفات المعلّم، والمتعلّم، وعن البدن السّليم. عيون الأنباء ٣/١٧٠.

الحكيم أبي سعيد إلى دمشق ليقرئه الطّبّ[1].

وتعرف مدى سيطرتهم على أنفسهم، وعدم الاندفاع وراء العاطفة، أو نسيان مصلحة مرضاهم، فليسوا مثل بعض أطبّاء اليوم، الذين يعطون المريض عددا من الأدوية، قد يكون فيها ضرر أكثر من نفعها، إمّا لأنّهم غير متأكّدين من تشخيصهم، أو لأنّهم ـ كما يتّهمون أحيانا ـ متفقون مع صاحب الصّيدلية التي يحسب لهم نسبة مما يشتريه المرضى على أساس وصفاتهم، والله أعلم بالصّحيح.

استمع إلى ما يقال عن أحد الأطبّاء القدامى وهو ابن وافد:

كان لا يرى التّداوي بالأدوية ما أمكن التّداوي بالأغذية، أو ما كان قريبا منها، فإذا دعت الضّرورة إلى الأدوية، فلا يرى

(١) عيون الأنباء ٣/٢٠٥.

التّـداوي بمـركّبهـا ما وصـل إلى التّداوي بمفردها، فإن اضطرّ إلى المركّب منها لم يكثر التّركيب، بل اقتصر على الأقلّ بما يمكنه منه[١].

ويبـدو أن هذا الطّبيب له إلمام في ذلك الزّمن بعلم الصّيـدلـة، فهـو يشرف على عاملين عنـده لسحق الأدوية، وعجنها، وتهيئتها بالصّورة المناسبة للمـرضى، ويصـل عدد العـاملين إلى ما لم تكن تتصوّرُه قبل أن تقرأ عنه[٢].

وإذا كان في ذهننـا أنّ الأشربـة هي ما كانـوا يعتمدون عليه، فقد ثبت أنّهم كانوا قد وصلوا إلى صنع الحبوب، بصورة متقدّمة[٣].

---

(١) عيون الأنباء ٣/٧٩ .

(٢) قال ابن جلجل عن أحمد بن يونس بن أحمد الحرّاني رأيت اثني عشر صبيّا طبّاخين للأشربة، صنّاعين للمعجونات بين يديه. عيون الأنباء ٣/٦٨ .

(٣) كان سعيد بن عبد ربه يعالج بالحبوب، وبعث مرّة إلى مريض بثمان عشرة حبّة من حبوب مدوّرة، وأمر أن يأخذ منها كل يوم حبّة، فما أكملها حتى أقلعت عن المريض الحمّى. وبرىء برءاً تامّاً. عيون الأنباء ٣/٧١ .

obeikandi.com

ومع هذا ـ يا بُنَيَّ ـ تجد عندهم مالا يقنعك، بعد أن تشبعت بأفكار الطّب الحديث، وعلمت أن الصّحة، خاصّة لكبار السّنّ، يساعدها أكل لحم الطّير الأبيض، لأنّ رضي الدّين الرّكبي يرى خلاف ذلك، استمع للقصّة التّالية عنه:

الصاحب صفيّ الدّين ابن شكر، وزير الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، كان أبدا يلازم أكل لحم الدّجاج، ويعدل عن لحم الضّأن، في أكثر الأوقات، فشكا إليه شحوبا قد غلب على لونه، وكان الأطبّاء يصفون له كثيرا من الأشربة وغيرها، فلما شكى إليه هذا، مضى لحظة، وعاد، ومعه قطعة من صدر دجاجة، وقطعة حمراء من لحم ضأن، ثم قال: أنت تلازم أكل لحم الدّجاج، فلم يأت الدّم المتولد منه مشرق الحمرة كما يأتي من لحم الضّأن، وأنت ترى لون هذا اللّحم من الضأن، ومباينتهُ في اللّون لهذه القطعة

من الـدّجـاج، فينبغي أنّك تترك أكل لحم الـدّجـاج، وتلازم أكل لحم الضّأن، فأنكّ تصلح، ومـا تحتـاج معه إلى علاج. قال: فقَبِل هذا الرّأي منه، وتناول ما أوصاه به، واستمـرّ على ذلـك مدّة، فصلح لونـه، واعتدل مزاجه[1].

هذا ما روي عن هذا الـطّبيـب، وعن هذه الشّكوى، وهذه المعالجة، وهي تخالف الخطّ الذي يسير عليه الطّبّ الحديث من فائدة أكل لحم الطّيور البيضاء، والأسماك، ومن يعلم ـ يا بُنَيّ ـ فكثرة تغيّر مجرى فكر الطّبّ الحديث، نتيجة للأبحاث، قد يأتي معـه يوم يوصي الأطبّاء المحدثون بخلاف ما كانـوا يوصون به، فينصر الله الأطبّاء السابقين في قبـورهم. فليست هذه أول مرّة يقـول الـطّبّ الحديث برأي يخالف تماما ما سبق أن ارتآه وقال به، وما علينا إلّا أن ننتظر، على أي حال، لا ندري ما هي سنّ الرجل الذي ذكروا عنه هذه الشكوى، وما

(١) عيون الأنباء، ٣١٩ ـ ٣/٣٢٠.

مدى صحّة الدّجاج، فقد يكون من نوع موبوء، وصحّ البدن بتركه.

وإذا كان في توصية الطّبّ في القصّة ما ينافي معتقد الطّبّ الحديث فإنّ في القصّة التّالية ما يوجب شكّا أشدّ، والشّكّ الأشدّ يماثل عدم الصّدق، لأنّ ما في القصّة يتنافى مع أسس العلم:

حكى الإمام فخر الدّين الرّازي في أوّل «السرّ المكنون»، قال: قال ثابت بن قرّة: ذكر بعض الحكماء كحلا يقوّي البصر إلى حيث يرى ما بعد عنه كأنّه بين يديه، قال: وفَعَله بعض أهل بابل، فحكى أنه رأى جميع الكواكب الثّابتة والسيّارة في مواضعها، وكان ينفذ بصره في الأجسام الكثيفة، فكان يرى ما وراءها، فامتحنْته أنا وقسطا بن لوقا، ودخلنا بيتا، وكتبنا كتابا، وكان يقرؤه علينا، ويعرف أوّل سطر وآخره كأنّه معنا، وكنّا نأخذ القرطاس، ونكتب، وبيننا جدار

وثيق، فأخذ هو قرطاسا، ونسخ ما كنّا نكتبه كأنّما ينظر فيما نكتبه[1].

وما زرقاء اليمامة وقصّة قوّة إبصارها ببعيدة عن هذه فقد رأت الجيش على مسافة ثلاثة أيّام، وحذّرت قومها، وعرفت عدد الحمام وهو طائر.

لعل هذا يكفي - يا بُنَيّ - فيما أردت أن أعطيك نموذجا عنه، تستفيد منه، ولعلّه يجعلك تقرأ أكثر مما أعطيتك، وكنت أودّ أن أعطيك نموذجا، لكل هؤلاء الحكماء قبل الإسلام، وبعد انتشاره، ولكنّي أخاف أن تملّ.

لعلك لاحظت هذه الطّريق الواسعة التي دخلناها منذ أن طمحنا إلى الحديث عن تاريخ الطّبّ. وبدون هذه النّظرة التّاريخيّة يبقى حديثنا مبتورا. أما الآن فكل حادثة طريفة ذكرناها سواء قبل هذا المنحنى، أو بعده، سوف لا يصعب عليك

---

(1) الكشكول ١/٣١٧.

وضعها في إطارها الطّبيعي، في خانة الادواء والأدوية.

لقد جلنا ـ كما رأيت ـ في روض هذا الكتاب القيّم «عيون الأنباء» وتنّسمنا عبير ما فيه من زهر وورد، ولم نقف عند كلّ شجرة فيه، ولا قطفنا، مستقصين، من كلّ زهرة فوّاحة ناءت بها الأغصان، ولا ارتوينا من كلّ جدول رقراق، وإنّما أخذنا زهرة من هنا، ودسسنا يدنا في بعض المياه الصّافية، والسّبب أني أعرف أنك «ملول»، فقبل الدخول، أنت حريص على الجولة، وتبنى قصورا في الهواء في أنكّ سوف تقضي وقتا طويلا، ولكن سرعان ما تحنّ إلى الخروج ممّا وجدت أنّه كثير الفائدة، قليل التّسلية. على أيّ حال إعلم أنّ هذا الكتاب واحد من ثلاثة اشتهرت في القرن السّادس والسّابع الهجري، خاصة بالتّراجم، هذا هو أحدها، والثّاني كتاب: «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدّين القفطى وهو كتاب لم يطبع بعد ـ حسب علمي ـ ولكن له مختصراً مطبوعاً.

والثّالث «وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان» لشمس الدّين أحمد بن خلكان. وهو كتاب مطبوع، ومنتشر.

وقانا الله وإيّاك - يا بُنَيّ - من الادواء، وأرشدنا إلى الطّرق التي تجنّب عنها، وتحمي منها، ووفّق الله أطبّاء هذا الزمان في أن يكونوا حكماء إضافة إلى الطّبّ، وألاّ يقتصروا على ما يجعلهم أصحاب مهنة لا يختلفون عن أصحاب المهن الأخرى. فهم لهم رسالة تختلف عن هدف الآخرين، من المهنيّين، لأنّ من يلجأ إليهم عند المرض، يحتاج إلى العطف والرعاية والاخلاص في البحث والتّقصيّ، وكما رأيت ممّا أسلفنا عن قول الأوّلين، يحتاج الطّبيب إلى أن يداوي النفس قبل الجسد، وأحيانا الدّواء في أن «يسعد النّطق إن لم تسعد الحال». وخطأ الطّبيب أو تساهله ثمنه حياة مريضِه، وفي المهن الأخرى غالبا مالٌ يمكن تعويضه.